الطبعة 2

فيصل العامر

شَغَبْ

طوى
للنشر والإعلام

شغب

فيصل العامر

الإهداء :

لـ الله

نستالوجيا ..

القليل من الذكرىٰ.. كالكثير من كل شيء ..!

و .. حرب ..!

شرق الرياض – غرة أغسطس / 1990 م

استيقظت حين أصواتهم .. سارة تصرخ :
– الحرب ..!

*

سأثرثر بالآتي .. ليس توثيقاً / استقراءً لشأن خبأه الزمن تحت جلده .. بعيداً عن التنميق وقريباً مما يمكن أن يقوله طفل يمضغ يومه حينها كقطعة حلوىٰ وهو ذاته الذي ارتدىٰ الخوف بعد ذلك مكان نعليه .. وهرب
أو هي "نستالوجيا "وحسب .

(1)

تفوح رائحة الحرب .. مع أن الكائن النحيل والذي سمي " فيصل " تيمناً بالملك الصارم لم يكن يعرف ما الذي يحدث تماماً ، إلا أن كل شيء في ذلك الحي البشع كان يتهيأ ، تقرع " بق بن " أجراسها .. موسيقى مهيبة تقتلنا ترقباً فصوتٌ رخيم :

" سيداتي وسادتي السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، الواحدة تماماً في لندن .. قال متحدثون رسميون أمريكيون إن سبعة وعشرين جندياً أمريكياً قتلوا بفعل صاروخ سكود العراقي الذي ضرب شرق المملكة العربية السعودية ... "

لاتنفك ذاكرتي عن بعث المشهد :

راديو كنا نطلق عليه " الرادو الروسي " .. يلفه إطار خشبي وتسكن جانبه الأيمن قطعة سوداء للتحويل بين قنواته .. شعرت بأهميته حين كنا نتحلق حوله .. كنت أقول في نفسي وأنا أرقب أعينهم الوجلة :

- ما الذي يمكن أن يفعله جهاز كهذا ..!

أخبار تلقي بالحرب بين أيدينا ، تحليلات طويلة .. بيانات عاجلة وزيارات متبادلة .. يكتفي المتحلقون بهذه الحصيلة .. ينفضون عنه ، قبل أن يخلد المكان للنوم .

بمنتصف الليل .. على رؤوس أصابعي أسير مبيتاً نية خطفه من خلف الباب ، أنجح في ذلك . شكّل " الرادو " مثقوب الوجه تضاريساً واضحة في ليلتي الأولى و خدي أيضاً حين كنت أتوسده لأكمل حفلة السماع ، بدت هيئة الإذاعة البريطانية الأكثر حرفية بين مجموعة هائلة من الإذاعات تمتد من شرق الأرض لغربها ، حاملة سلة ضخمة من الثقافات المختلفة لمواطن صغير يعيش في بلد مغلق بإحكام ..

تقرع ساعة " بق بن " أجراسها مرة أخرى وبصوتٍ يبعثر السكون .

يتلو المذيع ماتيسر له من أخبار.. لم أكن أعلم كل مايقال حينها ، لكنه بدا لي ذا شأن فلم أكن أفهم بعد أحاديث السياسيين المحبوكة و أشياءهم تلك التي اعتادوا دسّها عن الصغار .. عند الاكتفاء ، أمرر يدي الضئيلة على محول القنوات الأسود وبعبثية أدحرج بكرة المؤشر لأبحث عن الإشارة الأنقى .

هي البكرة التي زرعت بي الدهشة .. مئات القنوات الإذاعية التي مثلت كافة الأطياف الفكرية المعروفة وغير المعروفة وحوت كل الأديان التي يعتقد بها البشر وغير البشر ..!

أضحى نافذة غير متوقعة .. وفضاء ممتعاً .. امتلاء ..!

كانت قنواتي المفضلة إذاعة لندن العربية / الكويت / القاهرة / قناة مصرية مسيحية ثرثارة لا تنفك عن ذكر المعمدان / يسوع / متّا وبقية معتقدات أبناء العم ..

ولكم أن تتخيلوا هذا البدوي القادم من أقصى نجد وهو يستمع لترانيم الكنيسة : " بصوتي إلى الرب أصرخ ، في يسوع كل الحياة " بينما أقرانه يستمعون لـ " ياليت سوق الذهب يفرش حرير".. !

يستقر المؤشر البرتقالي على 102.2 أي : إذاعة القاهرة .. وبلهجة فصحى يشوبها " التمصر " وبخلفية صوتية عبارة عن مروحة مزعجة يكرر المذيع الذي يبدو شارداً كعادته :

سيداتي سادتي .. نترككم الآن مع " تسقيل " لفيلم لحن الخلود من بطولة : فريد الأطرش وفاتن حمامة ، يبدأ الفيلم وعلي التخيل .. فقط التخيل .

أصوات " كفوف" السينما المصرية المعروفة و " فرامل " السيارات ، صوت رنين الهاتف المزعج وضحكات الراقصة الحادة تجعلك تشعر وكأنك تشاهد تلك التفاصيل ولكن بأذنيك ..!

أغفو .. في الوقت الذي تصحو فيه السيدة فاتن لتغني لحبيبها .. وأغني بدوري شخيراً رغم الحرب..

أستيقظ بنصف وجهٍ ممتلئ بدوائر صغيرة هي حصيلة ليلة كاملة من الالتصاق بذاك الراديو .
في عصر ذلك اليوم أثار الشرير "سكود" ذعر سكان الرياض ، بدا الأمر أكثر خطورة ..
أصرت سارة على ذلك المتعسكر العتيد بالحرس الملكي أن نغادر للقصيم ، أو الجنة ..!
لكم أن تتخيلوا كيف لطفل يرى بكتل من الرمال ، لعنات الصحراء ، جيوش البعارين والبيوت المتطينة : جنة ..!
كانت الليلة السابقة لسفرنا للقصيم كفيلة بأن يفر النوم من عيني .. وأتمنى لو كان الصباح شيئاً أستطيع جرّه ..!

(2)

العسكري العتيد – آنف الذكر – هو أبي رحمه الله ، كان صارماً .. ترتسم على يديه مئات الأحداث والتجارب .. لازلت أذكر كيف كان يحكي لنا تفاصيل ماحدث بالقصر الملكي أواخر حكم الملك سعود وأحداث المربع الدموية .. وأشياء أخرى دفنت معه .
مع إصرار والدتي ولظروف عمل أبي قرر إرسالنا لجنتي البعيدة ، لكن هذه المرة لأجلٍ غير مسمى .. لا أعتقد لحظتها أن أحداً كان سعيداً كما كنت .. لملمت أشيائي الصغيرة بشنطة مرقطة ذات أرقام سرية والتي تستطيع فتحها بـمفك ، لا زلت أتساءل عن جدوى تلك الأرقام السرية إذن .. أشيائي المذكورة كانت عبارة عن ثوب وثوب وبينهما ثوب .
أما ساره فـ كانت تحمل لي معها بنطلوناً أزرق أنيقاً بحمالات وتيشيرت أصفر .. لم تكن تشجع نادياً معيناً لكن مزاج الألوان المتضاربة كان شائعاً حينها .

(3)

كدت أختنق .. أحسست بأن أحدهم حشر الدنيا بحلقي ومضىٰ .

دون سبب يمكن تفسيره – علىٰ الأقل لي –وفجأة .. الأب لايريد مني الذهاب هناك ، فهو يحتاجني كما عبر لي حين كان يمشط شعري بيده بينما كنت أرقبهم تبعدهم الخطىٰ عني .. لا أذكر حقاً كم من الغيظ حوته روحي الضئيلة آنذاك .. لم أبكِ التهمت الغصة واكتفيت بها ، غادرتني أمي .. أودعتها رائحتي لتعانق بها فردوسي المزعوم .

بعد سفرها بيوم لم تعد حارتنا مستساغة .. فقدت لذتها الصحراوية ، أحسست تلك الأيام أن الرياض كانت أشبه بـ قبر يتسع للكل .. لم أعلم حينها أنها ستصبح مدينة إسمنتية لا تتسع لي علىٰ الأقل ، بعد سنوات .

بدأ جبين الشمس بالسجود ولازلت متكئاً بزاوية الحوش أفعّل إضرابي المفتوح عن الحديث و أرسم أحلاماً حانقة علىٰ التراب ..

كانت العنود – أختي الكبرىٰ – تهم بزيارة جارتنا المريضة ..بدت متفاعلة مع قضيتي الإنسانية وحقي بالتعبير السلمي ، صرخت بي من علىٰ الشرفة :

– فيصل .. هل سترافقني لجارتنا " العجمية " ؟

أجبتها بالصمت ، وبحاجبين مائلين للأسفل .. وقفت تنتظر مني رداً ثم قالت :

– يقال بأن لديهم كيكة " أبو كاس " .. حسناً ، استمر بسكوتك .

ما إن سمعت ذلك حتىٰ ارتديت الفرح وكأن شيئاً لم يكن .

كانت الشوارع قاحلة ، مفرغة من كل شيء حتىٰ النساء ، لا أعلم أين ذهبت الفتيات الصغيرات .. لا أرىٰ إلا عجائز يقمن بالزيارات المتبادلة كل عصرية .. يتحدثن بكل شيء ، السياسة/ شؤون المرأة / الفن / غرق المدمرة البريطانية " شيفيلد"..!

صغر سني حينها وبراءتي الموسومة بين عيني تسمح لي بالوجود بينهن فلا يتوجسن خيفة مني .. فلم أكن رجلاً يستحق أن يخبئن وجوههن لأجله خوفاً من جهنم .. كنت مستمعاً صبوراً جداً فأحاديثهن لمن ينتمي لقبيلة الذكور تصبح سخيفة أحياناً ، مع أن تلك السخافة تنقشع حين يبدأن بالرقص علىٰ إيقاعات التصفيق والأغنيات التي تحمل رتماً واحداً ، أمثل دور الطفل الذي لايعرف مايدور حوله .

دلفنا بيت جارتنا.. كانت دلفة عن ألف دلفة مما تعدون.. الكثير من النساء وروائحهن وثيابهن التي لاتحوي عُقد الموضة .. كان مكاناً يستحق الزيارة حقاً ، خلعت عني العنود انصهاري ذاك قائلة :

- تعال .. قبّل رأس عمتك أم نايف .

اقتربت .. لثمت رأسها المليء بـ" الحنا ".. وجهت لي أمراً آخر :

- قبّل رأس أم محمد .. أم فرحان .. قبّل تلك هناك ، هنا

تحورت شفاهي لماكينة تفريخ قبلات ، كانت رائحة شعورهن الفاخرة شأنا لايمل .. أنهيت مهمتي الشاقة وبكل ما صنعه الله من أدب علىٰ هذه البسيطة التصقت بجانب أختي متدثراً بالحياء .. كانت الحرب تسيطر علىٰ ثرثراتهن المتشعبة بدءاً من آرائهن في تقييم الوضع المتأزم وصولاً لأدعيتهن بأن يهلك الله صدام ويرد كيده في نحره .. كنت أنتظر تلك الكيكة وليذهب أبو عدي وأم نايف ونورمان شوارسكوف للجحيم .. انتبهت العنود لهذا ، وربما لتكافئني علىٰ مجهودي " التقبيلي" العظيم ، قالت :

- تعال ، خذ .. العب مع الأطفال خارجاً لكن لاتبتعد
يا لغبائي .. من يبّدل أحاديث النساء بـ كيكة بنصف ريال ، التهمت الكيكة .. ثملت وأنا أهمّ بمغادرة التجربة ، قبل أن يباغتني ضميري الراديكالي والذي لم يشأ الدخول معي :
" أيها الفاسق .. الرجال ينسجون الموت على جباه الحرب وأنت هنا تقبل جباه الحريم .. قبل أن تثمل بكيكتك الحمقاء"

(4)

* تحتوي الثرثرة القادمة على مشاهد
غير صالحة لمن هم دون الثامنة عشرة +18

علاقتي مع السلاح ، علاقة حمراء .. تعرفت على الصديق الروسي Klashinkov - أطال الله في عمره - عندما دربني عليه أبي تحسباً للحرب .. كنت أعتقد أن الحرب رجل سأستطيع قتله يوماً ما بهذا السلاح ، دعوني أشرح هذا :
طفل يحمل سلاحاً نارياً تصنفه الولايات المتحدة على أنه " أخطر بندقية في العالم" قد تصل سرعة طلقته 1000متر بالثانية ..!
بينما يحمل أقرانه في العالم الأول دمى " ميكي ماوس " و " باقز بني " وبقية العائلة الكرتونية الأخرى .

ذات نهار ، حضنت الرفيق كلانكشوف ابن ميخائيل الذي قارب طولي ، وسدّته زندي .. سندته كـ شيخ طاعن أخاف عليه من السقوط ، ثم لففت شماغي حول رأسي بـ حزم .. اتخذت مكاني ، رفعته كما يليق به .. همست له بأغنياتي التي أتفاءل بها ، أغمضت عينيّ الطفوليتن .. فتحت واحدة و بكل إصرار ضغطت على الزناد .. ضجّ صوت مهيب بكل أرجاء الوادي ، لقد فعلها تماماً كما أردت ، أردى علبة الزيت قتيلة .. مزقها كعادته .. صفقت لي الطيور ، أحسست بأنه لم يخذلني .. صرخت :

- قتلت الجبل يا أبي !

بدأ الليل يزحف .. وقفت .. نفضت حجري من بقايا الرصاص ، ألحفته تلك الخرقة البيضاء ليرتاح .. أحسست به ، كان محموماً .. لم يلتفت لـ قلقي ، بدا لي نائماً وأنا أدعو الله أن يرعاه .

وصلت البيت قبيل المغرب ، كانت حارتنا تهمّ بغفوتها .. قبل أن يفزعها صوت صفارات الإنذار الذي بعث فينا التوتر من جديد .

قرب وقوع الخطر / الخطر / زوال الخطر ، كانت لكل حالة " نفخة صور" خاصة بها .. كانت تلك حالة " قرب وقوع الخطر" .. أحسست بضرورة أن أطلق ساقيّ للريح ، لاأعلم لم / أين ! يبدو أن مفهوم الموت مع الجماعة رحمة كان يتشكل بي لحظتها.

طوقنا " الرادو الروسي " طيب الذكر جالسين .. إذاعة لندن العريقة تبدو غير واضحة تماماً ، " تشويش .. شنت طائرات قوات الائتلاف ، تشويش .. وقال قائد العمليات ، تشويش " ، كان الخوف يرسم خطاه حثيثاً على وجوهنا ، بدا الوضع مزعجاً بعض الشيء فلم نكن نثق بالتلفاز الرسمي كثيراً لكننا اضطررنا تلك الليلة لمشاهدته .. كانت صورة الفريق الربيعة – على ما أذكر

- وتصريح عن مختصر العمليات ، وأن الأمور تجري على مايرام .. التفت أخي على يساره ، يمينه .. ثم قال :

- أين غطس سلطان ..؟

قفزت من مكاني لأبحث عنه ، سلطان يكبرني سناً و جنوناً

ناديت بوجل :

- يا سلطان !

صوت قادم من أعلى :

- تعال ، فوق

صعدت درج السطح ركضاً .. ما إن وصلت السطح حتى رأيته .. كان سلطان لكنه بفم مشرع ووجه يكاد يطير للسماء .

قلت بنفسي :

- هذا الولد سوف تتصعد روحه للسماء ، سيُعرج به .. سيخرج من بين ظهرانينا نبي سأصبح أميراً للمؤمنين حين يموت !

لمحني أشر لي بيده :

- فيصل تعال ، تعال

وقفت بجانبه ، عاود نظره للسماء .. نظرت له ثم نظرت للسماء ، شاهدت ذلك الصاروخ الناعم " باتريوت " وهو يلاحق " سكود " ، أخطأه .. وبثقة مفرطة لازالت تختمر بذاكرتي شق سكود الفضاء بلا وجل ، سقط باتريوت .. ماهي إلا ثوانٍ حتى لحقه اثنان آخران .. سقطا بدورهما واثنان أيضاً .. هذه المرة يبدو أن كثرتهم غلبوا شجاعته ، أحاطا به .. أنهكاه .. خرّ صريعاً.. ترجل الفارس رغماً عنه .. نظرت إلى سلطان وأنا أقول له بحماس :

- أريدك أن تشتري لي واحدة تشبه تلك الطائرة !

كنت أعتقد أن " سكود " ماهو إلا طائرة ورقية لاتعطى إلا لمن هم أكبر سناً .. بين يكتفي الأطفال – كحالاتي – بطائرات ورقية حتى يصلوا لمرحلة متقدمة من السنين

لكنه قال لي ساخراً :

- ليست طائرة يا رائد الفضاء ، إنه صاروخ

" كان صاروخا رجلاً .. أقسم بهذا "!

هذا ماقلته لنفسي حين كنا نهمّ بالهبوط لقواعدنا بالدور الأرضي سالمين .

(5)

عندما نلقي بـ رؤوسنا على وسائدنا ، تبدأ سلسة طويلة من أحاديثنا الصغيرة عن الحرب التي لم نكن جديرين بها .. يحيك سلطان أحاديثه عن سكود وباتريوت وأنهما سقطا بجانبه ولم يخفه ذلك ، بل أنه شاهد صاروخاً يكتب " الله أكبر" وهو يهوي وبقية الوساوس التي لاتنفك عن إظهار رؤوسها منذ الأزل .. أما أنا فقد كنت ألتزم الصمت وأتمنى لو صرخت به :

- كفى كذباً !

في تلك الليالي لم نكن نحظى بما يكفي من النوم .. كنا نتلحف الترقب كل ليلة ، ترقب ماذا ؟ لا أعلم ، فقد كنت أصغر كثيراً من الحرب . كنا نتكدس بغرفة واحدة لنخلق من الأرض سريراً وعند الصباح تجد أجمل اللوحات الجسدية و التي اختلطت بها الأيادي بالأرجل ، ولم يكن مستغرباً أن تنام بفراشك بشكل سلمي لتجد نفسك وقد قذفك احتلالهم الغاشم إلى خارج حدود " المقلط" !

بمعنىٰ آخر ، كان النوم بجانبهم بمثابة الدخول لقفص من الفيلة متنكراً بلباس فأر ، ورغماً عني وقهراً لإرادتي الطبيعية أكون أول من يستيقظ ، أجرجر أرجلي .. مأرجحاً يديّ وقد انحسر ثوب نومي المخطط وطال سروالي الأبيض عن حدود رجلي اليمنىٰ .. وبشعر مخيف أتجه لأغسل وجهي المتكدس .. أنضح الماء عليه بلا رغبة تذكر ، أرفع رأسي للمرآة فصوت محروم يتمتم بداخلي :

- أريد كسرة من نوم يارب !

تمر ثوانٍ .. يبدو أني أرضخ كـ كل صباح لنداء الواقع ، أتجه لدولابي الحديدي الذي تحتل جزءه الأيسر مرآة تجلب لي آخر أخبار وجهي .. تأنقت كما يليق بطفل صغير .. لبست ثوبي الدفة الذي كلفني 55 ريالاً .. لا يسألني أحدكم كيف كانت تلك 55 ريالاً تصنع المعجزات ، حاولت مراراً أن أسرح شعري جانباً لكنه لم يكن مطيعاً - كما يفعل دائماً - بعد عدة محاولات يائسة عاقبته بأن كتمت أنفاسه بطاقيتي المطرزة .

لم تكن مدرستي تبعد كثيراً ، انتعلت ماتيسر لي من الحذاء والتي تساقطت عند باب الدرج ميمماً وجهي شطر بيت جارنا الذي كان المدرسة .

(6)

غصت مدرستي بالكويتيين حينذاك الذين نزحوا أثناء الحرب .. كان احتكاكي بهم فعلاً غير مسبوق ، شيئاً لم أعتد عليه فقد كانت الرياض مدينة تتكوم علىٰ ذاتها متقنة لفظ الآخرين . كانت

تراكمات التجربة تتصاعد لطفل كان يعتقد حتى قبل أسابيع من الحرب أننا لانشبه أحداً ، مختلفين بطريقة ما وجيدين بما يكفي للعزلة .

وجوههم ، نظراتهم الجديدة ، كلماتهم الممطوطة ، لباسهم الفضفاض ، غترهم البيضاء وحتى شتائمهم كانت أحداثاً تجري بشكلٍ آخر .. اقترب مني أحدهم ، لا أعلم لم كنت خائفاً من صوته الجديد علي :

- هي أنت يا صبّي !

- سم

- وش اسمك ؟

- فيصل .. فيصل عامر الحربي

- أنا مفضي جبر ، المكان حر هني ..تعال ندش داخل

- هاه !

- ندش .. ندش داخل

- يعني وشو !

- ندخل هناك

ضحكت .. دخلنا الفصل الذي كان عبارة عن غرفة نوم جارنا البرجوازي الذي قامت الوزراة بتأجير بيته الشاسع ، جلسنا سوية .. نلتهم ساندوتشاً باللحم المفروم والشطة ، ونتجرع مشروباً غازياً .. كنت ألحظ طاقيته ، ياقة ثوبه ، أكمامه وهو يحكي لي عن فصول مدرسته بالجهراء ، تجاذبنا أطراف الحديث كثيراً .

عدت للبيت .. وفمي يزدحم بالحكايات التي أنوي سردها عن تلك الكائنات الزائرة لكوكبنا الرياض .

(7)

كنت مندفعاً قبل أن يصادفني أخي يحمل لاصقاً ومهرولاً ناحية المجلس ، قلت له وأنا أهرول بشنطتي معه تلقائياً :

- ماهذا ؟

- لاصق ، سنلصق النوافذ

- لم ؟

- والدك يقول ذلك .. يتحدثون عن نية صدام قصفنا بالـ" كيماوي " ، اذهب للصالة .. فهد أحضر لنا عشرات الأقنعة .

كانت " تصريفة" جيدة لطفل لحوح .. لكني واصلت الركض معه وشنطتي تقرع ظهري :

- بربك .. دعني أرىٰ

- ليس صنعاً فريداً ، مجرد لاصق أطوق فيه النوافذ وفمك أيضاً

بدأت بكبح أرجلي .. كنت أفهم أن " الكيماوي " هو عبارة عن علبة مبيد حشري كبيرة سيلقيها المجنون صدام علينا من طائراته التي أحببتها تلك ، كنت أقول :

- لسنا ذباباً .. لم سيفعل ذلك إذاً ؟

اتجهت للصالة حيث يجلس فهد وسط أقنعته ، تربعت بجانبه ، سحبت أحدها وضعت وجهي به .. لم يكن مصنوعاً لي ، بدا ربعه الأسفل فارغاً من وجهي .. أدخلت يدي محاولاً مطّ ذقني المثلث وسط قهقهات ذي الأقنعة ، فهد .. سألته :

- أين مقاسي ؟

- أنت ترتدي مقاسك الآن ، تبدو كنحلة صغيرة

وقفت ، مشيت متخبطاً نحو المرآة .. حاولت ترتيب رأسي الجديد لكني فشلت بينما كان يميل يمنة ويسرة ، قلت بصوت مقنّع :

- و كأني نحلة فعلاً !

أعجبني صوتي الغريب به .. فـ غنيت :

"بشار يا بشار هيا إلى العمل .. اجمع شذى الأزهار من روضة الأمل "

وبشار الوارد اسمه هنا هو يعسوب ضاعت أمه عنه ، فاشتغلنا به وأشغلنا بها وأثار تعاطفنا وهيج بكائياتنا كعادة قصصنا الطفولية العربية . خلعت القناع ، وأقسمت برب النحل أني لن أرتدي شيئاً يشبهه يوماً .

(8)

كأنها البارحة ، رغم أن تفاصيلها أصبحت غائرة إلا أن مذاقها لايزال يخيم بأصابعنا .. لم تكن الحرب يوماً جميلة ، حتى وإن حاول مرتكبوها التودد لها .

العالم ليس قرية صغيرة ، بل غابة صغيرة يخلع قاطنوها رقاب بعض كي يعتمروا حياتهم .

سيحدث أن أعيش حرباً أخرى يوما ما ، فرفاقي البشر لن يخذلوا حدسي .. لكني ربما لن أملك الأصابع وقتذاك لأرسم وجهي المتعب ، فخذوا عني طقوسكم الموحشة للبقاء وحروبكم .

* يتبع يوما ما

كان حضناً ..!

في أوائل التسعينات وبمدرستي المتوسطة والتي كانت بيتاً لعمدة حينا الأقصىٰ ، كان والدي – قدس الله روحه – وعند زيارته التفقدية لسير عمليتي التعليمية العرجاء يفعل شيئاً غريباً آنذاك يقف مطلاً مع مديرنا النحيل علىٰ ساحتنا التي نركض فيها رغم أنف المكان " الحوش" ..
أراه ، ترفرف شماغي خلفي كطائر نورس حين أطلق ساقيّ راكضاً نحوه ، أقترب من ركبتيه ، أطوق يديَّ عليهما .. ينحني ، يهدد رأسي المليء بالشماغ وأنا أحضنه جداً ، هنا تقريباً كان الفعل العجائبي ، أرىٰ ذلك في أحداق الأطفال الملاعين ، وأشمه في ابتساماتهم الصفراء وحين كلماتهم الباهتة :

– أرأيت ! يحضنه أبوه كطفلٍ مدلل

كنت طفلاً محظوظاً .. يمارس عليه أبوه فعلاً نادراً في أزمان الجدب تلك .. قلت له علىٰ الغداء بـ شفة سفلىٰ متدلية :

– أبي .. الطلاب يتغامزون حين أرمي نفسي بحضنك

– ما السبب ؟

– لا أعلم

مسحت يدي بطرف الصحن .. لاحظ أبي علي الكدر قال مبتسماً :

– كما تشاء يا ابني .. سأحضنك بعيداً عنهم .. أكمل غداءك

بعد ربع قرن ، تمنيت أن أستنسخ كل ذلك الحضن .. كله .. لـ ألصقه على وجوه من أضطر للارتطام بهم عند كل لقاء ، أو أغرسه على أيدي أولئك الذين يصافحونك في كل مكان وكأنهم أرسلوا ليتأكدوا من أن يدك مازالت على قيد الحياة !

أحن الى "مضير" أمي ..!

سأ توجّد هنا على ماكانت والدتي تخلقه بين يديها كما كان يتوجد درويش على خبز أمه وعليكم مراعاة الفوارق المكانية.. وسحنات الجغرافيا أيضاً .

* مضير : بقل وبلغة أخرى : أقط

- العهد القديم – هوشع البدوي – سفر : يحدث صباحاً دون غيره

تُنهض سارة بنت تركي خصلتها عن جبهتها المعتّقة وبشيء من الحرفية البدوية تقتحم ذلك الشبك المتهالك .. تتجه صوب تلك الممتلئة لتحلبها ، تتكئ تحت ثدي تلك الماعز غضارة تبدو من العهد البائد .. ذلك القدح بالأبيض ينضح بصوت كورالي أخاذ وأنا أمارس بدوري لذة المعرفة الأولى .. كنت أقف خلفها .. أبدو متلهفاً ، وبتشبيه أكثر تمدناً كنت كطفل من أطفال مابعد الألفية أنتظر في "باسكن روبنز" ذلك الفلبيني أن يملأ لي سطلاً من الآيسكريم بالتوفي .. ربما كان التشبيه أحمقاً لكن اللذة تتشابه ، كانت نفسي تشتهي قطف شيء من الرغوة البيضاء بإصبعي .. أغرف ماتيسر لي منها ثم ألعقها .

تقبع قريتنا المتصحرة أعالي نجد ، تموت كل ليلة بُعيد الصلاة الأخيرة حينها ترفع بنت تركي الغضارة المتعجنة أعلى " بلكة " قد برزت من جسد السور الخفيض ..صوت الريح ، أغنيات

الجراد تقاسمني فراشي الرفيع الذي تعتليه مخدة محشوة بقطن تالف يتوسطها رأس صغير .. بطانية لم يترك صانعها الباكستاني لوناً إلا ولطخه بها ، وساقان عابثتان .

تتمثل المرحلة التصنيعية "المضيرية" الثانية من تجفيف الحليب الدافئ لعدة ساعات حتى يتصلب أو يسقط من عل !

- فيصل .. فيصل .. صلّ ..صلّ .. الصلاة

صوت والدي وقد اخترق هدوء الفجر .. درجة الحرارة تقترب من الصفر ، أتحسس تلك البطانية .. أجدها قد تلّوت بين قدمي وابتعدت مخدتي عن رأسي فيما انحسرت فنيلتي " ماركة غزال " عن بطني .

نهضت :

- سم .. سم يبه

أسير بخطى من نعاس وثياب تزيدني صقيعاً كلما لامست جسدي .. الهدف كان الماء لـ أتوضأ استعداداً للصلاة .. بالعرف البدوي يمثلان التهاون بالصلاة والتدخين خسفاً أخلاقياً مهلكاً .. تمسك يدي الصغيرة ذلك الصنبور المعدني العتيق ، بتردد ينسكب الماء.. تخترقه أصابعي لـ تتأكد أنه يجري على مايرام .

تشرع المعاناة لي أبوابها ، أذكر تماماً كيف كانت ارتجافات يدي ترغم الماء على التطاير بوجه الميضأة الإسمنتية .. أكمل طقوس الوضوء ، أمسح وجهي الصغير بـ الجاف من ثوبي ، إيمان فطري دافئ مايلبث إلا أن يتلاشى مع أول نفحة هواء قارسة .

تقرع قدماي الأرض الباردة متجهاً لذلك المسجد الطيني والذي لايبعد كثيراً عن البيت .

- الله أكبر ..

صوت والدي الغائر بالسكينة معلناً بدء الصلاة ، أرفع ذراعاي وبشيء من التثاؤب أتمتم :

- الله أكبر

- الحمد لله رب العالمين الر.....

فجأه ، تغلق عيني أبوابها لأغط بنوم لذيذ .. يلكزني أخي المؤمن بعد أن ركع ، كالمفزوع أنتفض .. أحدث نفسي :

- ألا ينقض النوم الصلاة ، لم لا أذهب لفراشي إذاً !

- سمع الله لمن حمده .. الله أكبر

يخرس أبي هواجسي بصوته مره أخرىٰ ، اقذف نفسي للأرض ساجداً ..يتكرر المشهد بالركعة الثانية

- السلام عليكم ورحمة الله

ينهي الإمام صلاتنا الجماعية ، ما إن التفتُ يساراً مسلّماً حتىٰ أهمّ بالخلاص ، أقف نافضاً جبهتي من أثر التراب قبل أن ينهرني أبي :

- فيصل ، اقعد .. سبّح واستغفر .. لن يطير النوم ويتركك

أرفع صوتي مذعناً :

- اس س س !

يقوم أخي بعد أن فرغ من التسبيح وذلك يعطيني إشارة انطلاق لمخدعي الذي اشتقت له .. ترتسم تلك الابتسامة الناعسة علىٰ الجزء الأسفل من وجهي ، أقدامي تتصارع للوصول مبكراً لفراشي القبيح ، حينها تكون سارة الجميلة قد حضّرت القهوة وملأت ذلك الصحن المعدني بتمر سكري يسر الناظرين .

لاشأن لي بها كله .. شأني الوحيد الآن هو أن أهطل برأسي المتجمد على مخدتي لإكمال نومي الذي حرمت منه .. فقط .

تتمثل المرحلة التصنيعية الثالثة بـ" الخض " حتى تتراكم " الخواضة " داخل " الصميل " .. كانت حكاية الخضخضة تستغرق دقائق طويلة وجهداً أطول باستخدام الأيدي وربما الأرجل قبل أن تشكّلها أمي بيدها ، ناحتةً عليها تعرجات أصابعها وتضاريس كفها الباطن ، حينذاك أكون قد غرست رأسي بحضن صديقتي القريبة مخدتي والتي تشبه كثيراً رأس فرس نهر .

تمر الدقائق وأرجل الرجال على الحصيات الصغيرة التي فُرش بها الحوش مصدرةً صوت خشخشة مزعجة .. أنقلب ذات اليمين ، ذات اليسار .. صوت قادم من بعيد :

- يابو سلطان .. ياولد

أنقلب على بطني

صوت أبي مرحباً :

- تفضل ، حياك الله

لازلت ممتعضاً ، لم تشرق الشمس بعد .. بينما تترنح عيناي .. أتأفف :

- لاحول ولاقوة إلا بالله !

صوت آخر :

- يا الربع

ثم أصوات قادمة جديدة .

النوم يودعني خارجاً مني ولسان حاله يقول :

- ضيعت وقتي أيها المسوف

رغم أني ليلة البارحة سهرت إلا أني خلعت " الشرشف " عن جسدي النحيل ناهضاً .. أرجو أن لاتقرؤوا كلمة " سهرت " بصوتٍ عال ولأخبركم سراً على أن لاتخبروا به أحداً " نعم ، سهرت حد الساعة التاسعة .. جريمة أليس كذلك ؟ "
هذا ما يعتقده أبي ، والزمن آنذاك .

أبو منصور .. أبو فهاد .. أبو عواض ، كانوا عساكر متقاعدين وقد يفسر هذا سبب استعانتنا بالقوات الأمريكية حين حرب الخليج !
كان عليّ وأنا المخلوع من النوم أن أصبّ لأولئك الجنرالات القهوة واقفاً وممسكاً بالدلة لا أميل بها ولاتحيد عيناي عن أيديهم .. يمدّ أحدهم فنجاله كـ أمر عسكري نافذ ، أهرع بملء فنجانه للمرة العاشرة حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً ، كان علي أن أتفاعل مع الحكايات التي يقومون بسردها ، أبتسم ، أتعجب ، أحزن
فالأيقونات التي ترتسم على وجهي تلك ضرورية لكي لا أكون : ولداً لايعلم مايجري حوله .
يصفع أبو فهاد "الزولية" الحمراء بعصاه ، يرفعها لتلامس كتفه ثم يبدأ بالحديث عن سيرة فارس كان متخصصاً بشذب رؤوس الأعداء من المنتصف ، لاشيء أقل من ذلك .. ثم يواصل تفنيد التفاصيل التي تتحدث عن أن الفارس الدموي لحق بمن كانوا يريدون نهب " ذوده " المتربع بأحد الفياض .. حاول اللحاق بهم ، كانوا ثلاثة هرب الاثنان وبقي الثالث يركل فرسه جاهداً ، وما إن اقترب منه صديقنا المتخصص حتى سلّ سيفه ، وبنفس طريقة الشذب المشروحة أعلاه طار نصف رأس المسكين عالياً ، فأخذ فرسه بالركض بدون نصف رأس راكبه الذي سال دمه اللزج على كتفيه .
ولكم أن تتخيلوا تلك اللقطة السينمائية المثيرة وعقارب الساعة لم تتجاوز السادسة .. صباحاً !

تواصل تلك السرديات تحليقها حثيثاً بالمكان .. ويبدأ التعب بحقن أرجلي ، وبإصبعي الأيسر الصغير الذي ارتفعت درجة حرارته بفعل " الدلة " ، ولكن الأمر لايبدو مهماً لـ أبو عواض والذي خلق الله القهوة له ، أرقب عروق يده النافرة على " الشداد " ..عينيه الناضحتين بخطوط حمراء .. وجهه المبتل بالاسمرار ، وبملامح مخيفة يقطع هذا كله فينادي :

- تقهو ياغليّم ..!

قبل أن يهشم قطعة من " المضير " بين أسنانه المتفرقة وهو يتمتم :

- شهيٌ هذا الصنيع ..!

يغادر رؤساء المؤسسة العسكرية ساحة معركة أحاديثهم ، وأغادرها أنا للنوم .. مقسماً بأغلظ الأيمان .. أن من يتجرأ على إيقاظي فسأخنقه بأعراف القبيلة وسألهب ظهره بـ " السلوم والعوايد " ..!

فهد مرضي

سنة أولى متوسط ، آنذاك كان من يضع السيجارة بين أصبعيه " سربوت " ومن يتعاطى الحديث معه أو حتى يلقي التحية عليه فهو سربوتٌ آخر ، مما يحيلهم قطعاً لنبذ مجتمعي مفزع و نظرات شك وعقابات وحشية . فهد مرضي كان الشاب الذي يعاقر السجائر كمدخنة لا تهدأ ، أسمر يتخذ من " اللطمة " ثيماً أبدياً . بحصة الفقه لم يحضر المعلم فبقينا نتحدث كثيراً .. كانت معظم حكاياتنا حزم من الكذبات الصغيرة ، المهم أن هذا اللعين ناداني :

- فيصل .. فيصل ..

- سمّ

اقتربت منه .. مدّ يده . فصافحته

إلا أن فهداً عصرها بقوة ، لم أتألم ، كنت أرقب حينها عينيه الخبيثتين ونصف وجهه المعلّم بالبثور .. قال لي بلهجة منحرفة :

- شمّ أصابعك !

رفعت يدي .. كانت أصابعي معتقة برائحة "المالبورو" ، دارت تلك الأفكار الاحترازية برأسي " ماذا سأقول لوالدي إن اقتربت لتقبيل رأسه عند عودتي من المدرسة ورائحة الدخان تصول في يدي ، ياويلي " .. بالفسحة ، فركت يدي كثيراً تحت الماء.. مسحتها على كل الجدران التي أتخطاها .. الطاولات التي تصادفني ، وبعد كل تجربة أكرر استنشاق يدي .. لا فائدة . حاولت أن أخفيها بفم من يجلس جانبي ، أعيرها لمن يعمل بالمقصف .. أن أفعل شيئاً ، لكني قلت أخيراً بصوت متعرج :

- أخذك الله يا ابن مرضي

دق جرس " الطلعة " خرجت وعلى غير العادة ، أتى أبي ليقلني ، قلت بنفسي " أهلاً ياحظي الجميل .. ظلت يدي تطل من نافذة السيارة .. أخذ – رحمه الله – بسؤالي عن تفاصيل يومي الدراسي .. كنت أقول بنفسي :

– ليتك تدري !

أردفت :

– على مايرام

التفت لي :

– لم تخرج يدك بهذا الشكل

تلعثمت :

– أنوي مسك جزيئات الهواء

تمتم بكلمات لم أفهمها وكأنه يقول :

– أي منهج علوم شرح لك ذلك !

باب ماجاء في : هفهف

وأيضاً بذلك العهد لم أستطع إطالة شعري قيد الخمسة سنتيمترات حتىٰ ..!
ومع أنه كان شعراً غير مأسوفٍ عليه إلا أن قوانين المدارس آنذاك - وربما حتىٰ الآن - تحرم إطالة الشعر فكانت رؤوسنا كمن للتو تخرجوا من كلية عسكرية .. أما عن الزيارات التفقدية لوكيل مدرستنا السمين فكانت تختصر الرعب .. يدخل فجأة :
- ارفعوا أشمغتكم ، جميعاً..!
وبالحديث عن الأشمغة كان "كل" طلاب المدرسة يرتدونها لأن من لايرتديها لايعتبر رجلاً .. علىٰ الأقل بمفهوم الإدارة المنكوسة والمجتمع المتطين . يحمل ذلك الوكيل المقص لـ " يحرد " من لايعجبه شكل شعره .. ويحرد هنا تعني : الوجه الأعنف من يقص .. كنت أكره تلك اللحظة التي يُجبر "نادر ضيف الله" نزع شماغه لـ يهفهف شعره أمامي قبل أن يقبضه ذلك الضخم ليحرده .. ترتسم الدموع علىٰ خديّ نادر المنكسر وشعراته الحريرية تتساقط علىٰ طاولته ..
حينها أتحسس شعري لـ أخاطبه بقولي :
- لاتخف إن الله معنا ..!

إش ش !

عندما كان آباؤنا يتحدثون بأمرٍ يعتقدونه سياسياً يخفضون أصواتهم حتى يبدو الأمر أقرب للوشوشة ، قبل أن يقوم من يجلس بعيداً بدور المنقذ قائلاً :

- إش ش.. الجدران تسمع!

مع أن لا جدران بالبر ولا أسقف .

عني ، كنت أتخيل الجدار سيخرج من صمته يوماً قائلاً لي :

- بالمناسبة لقد سمعتك ، ستندم ..!

بعد تلك السنوات ، ومع تعالي سقف الحرية أصبح الحديث السياسي أمراً مستساغاً ..

واكتشفنا أن الجدران لاأذان لها ولا أنوف .. وأن لا الوشوشة تسمع ولا الهتاف أيضاً!

فيلم حيوانات

عندما كنت صغيراً كانت لدي مجموعتان متشابهتان من حيوانات صغيرة مجسمة
كنت أرتكب حرمة شنيعة آنذاك بامتلاكي لذوات أرواح حسب تلك المفاهيم!
أجمع الحيوانات ، وأمثل بهن أفلاماً لا تصنيف لها .. كانت القصة والسيناريو والحوار من تأليفي
بدون مسودات بل وليدة اللحظة ، كنت أقوم بتأدية أدوارهم بصوتي
كان الجمهور أخي فقط ، والذي يصغرني بسنة واحدة .. وخشبة المسرح " المتكئ " ..
كنت ديكتاتوراً عندما أهددّه بقولي :
- لن أحكي لك شيئاً ..!
في كل مرة يعصي لي أمراً ..
حكيت له ذات مرة عن الأسد حين جمع الحيوانات تحت قبة الغابة ليبلغهم بمحاولة النمر
الانقلاب عليه رغم أن النمر " رجل في حاله " ، لكن الرئيس ولتبرير طوقه الأمني الخانق على
معشر الحيوانات قام خطيباً :
- ياحيوانات .. إنني أقف اليوم .. ورغما عنكم لأبلغكم خبراً قبيحاً هز أركان البلاد ..
ومع أني أعلم أنكم لايمكن أن تفعلوا شيئا مهماً لي إذا ما استثنيت هز رؤوسكم، لكني قررت
عزل الأخ نمر ، قبل شنقه .. ثم محاكمته محاكمة عادلة وإنا لله وإنا إليه راجعون ..
ينهض الضفدع ويهتف :
- بالروح والدم نفديك يارئيس ..
يضج الهتاف بأرجاء الغابة :
- بالروح والدم .. إلخ ..

تنتهي الحكاية بمشهد النمر مشنوقاً بسلك رفيع علقته على أصبعي وأصوات الجماهير تنخفض تدريجياً ويظل أخي مبتسماً ، قلت لي :

- تبدو حكاية سياسية ، حسناً أخي بالكاد يعرف ما الانقلاب ، لكنه يبدو مشدوهاً .. إذاً أنا أفعل الأمر بشكل متقن .

كانت الحكاية تستمر لساعة أو أقل وأنا أمارس خلق المشاهد وحياكة شيء من الدراما البسيطة أقوم بكل هذا مجاناً ولوجه الفراغ ومع أني لم أشاهد بحياتي فيلما هندياً كاملاً ، إلا أن حكاياتي تنتهي عادة بالموت .

بعد ذاك ، أجمع أبطالي .. أقذفهم بتلك السلة البرتقالية حتى يحين موعد حكاية أخرى .

"مسفع "من حنين

الجدات : التفاصيل اللذيذة .. الكثير من الطهر وتلك المسافع التي تتدلى منها المفاتيح الصغيرة .. يخلقنّ منّا : كائنات ذوات ذكرى . جدتي الأجمل بينهن لأنها تغدق علي بذلك البسكويت المثلث .. والذي تحتفظ به بشنطتها الحمراء .. تلك الشنطة التي تحوي معظم الأشياء المصرورة ، كحل / ديرم / مستكة .. وهديتي المنتظرة أيضاً !

ربما كنت طفلاً براغماتياً ، لكني لا أميل لجدتي عندما لاتجلب لي ما أحب .

تناديني :

- تعال سلّم على جدتك ياصغيري..!

وبصوتٍ أثرم يختلط بـ " بوز" ممتد :

- نّا !

ولأني مؤمن أن من السياسة تفعيل المصلحة العليا فإني على يقين أن تلك الـ " نا " لن تجلب لي شيئاً ، وذلك البوز كذلك .. أتراجع عن قراري السيادي الحاسم بفعل جيناتي العربية الأصيلة . أبدو منكسراً وأنا ألقي نفسي بحضنها علّي أظفر بشيء أقل حلاوة .. ألا أخرج خالي الوفاض على الأقل . تأخذ بمدحي وبأنني أحد أشطر أطفال العالم ، إلى ما هنالك من هذا الكلام .. حينها لايبدو على جدتي اكتشافها لخططي الشيطانية الآتية . وأنا : بريء جداً

ذات أحمر

صوت ذلك العظيم ينادي :

- أنزل هذا الخروف من هنا ، وأذهب به للمسلخ .. لم أتعد الثامنة حينها ، بدوي ضئيل .. أسمر .. تقبع على كتفيه صحراء ملّت الجفاف ، وجحافل القادم من الهمّ. تبدأ حكاية العراك محاولاً بها جرّ الخروف إلى مثواه الأخير .. أسحب الحيوان الذي يبدو أكبر مني حجماً .. يحاول الفرار وسوق اللعنات على هذا الطفل الشقي وعلى حظه الحالك . وبيدين تملؤهما الحدة ، أقتاد ذلك المستسلم لمقصلته الكائنة خلف بيتنا ..لا أزال أذكر عيني ضحاياي الذين قمت بقتلهم .. باردة .. متوسلة ، صرير رجليه ويديه على أرضية الحوش .. يحاول بهما التشبث بما يتعثر به وأنا لازلت ذلك الطفل عديم الرحمة .

أقذفه على سطح المسلخ الأملس ، وبركبتي النحيلة أطأ عليه ، أثني رأسه للخلف . سكين ذات نصل حاد .. لاتشيخ.. أدنو بها من عنقه البارز أسحبها بسرعة ، ينبسج ذلك الأحمر القاني ملوناً المكان .

أبتعد قليلاً ليصارع رفيقي الموت ، أجله الذي وافاه .. يومه الحتمي ويبدأ الدم على يدي بالتخثر .. أرقب جسده المرتعش .. يهدأ بعد أن أنهكه التشبث بالحياة .. أبتسم حين

يرسم نزيفه على الأرض سيلاً رفيعاً .. تبدو عين الخروف قد جفت والتحفت بغشاء شفاف .. وبقعة بيضاء تزداد وضوحاً ، صوت قادم من حنجرته المقطوعة يبدو متحشرجاً . لم أفسره كما علي أن أفعل بكل مرة أنحر بها حيواناً ، ذات مرة سمعت " قميري " تقول لي بعد أن غرست بحلقها كسرة "عود" من خشب وهي الطريقة الأسرع لنحر الطيور بحال لم أمتلك سكيناً حينها .. سمعتها تقول :

- اللعنة..

أكاد أقسم لكم أني سمعت ذلك ! تستطيعون أن تسألوا يدي الآن .

بشأن الاستتباب

و .. ذات نهار جمعتني التجربة الحمراء مع أحد أبناء الخال ، قال لي أن أحد مساجد الرس سيشهد حكم الإعدام بقاطع طريق .. اتجهنا له وبعد أن أدينا صلاة الجمعة صوب الساحة ، حشود من الفضوليين والمتعطشين ربما . تلى أحدهم بياناً يشرح مافعله هذا المجرم ، لم أكن مهتماً بذلك الصوت كنت أرقب السياف.. ضخم الجثة .. بجانبه شخص يبدو بمنتصف عمره ، معصوب العينين وقد برزت رقبته من الخلف .. كان جاثماً على ركبتيه . أخذت بالتطاول عندما سمعته يقول :

" لتأكد للعموم حرص حكومة خادم الحرمين الشريفين على استتباب الأمن "

والتي تقال عادة بنهاية تلاوة الحكم ..

يرفع ذلك الكبير سيفه عالياً وأنا أحدث نفسي عن أمنياتي باقتناء سيفٍ مثله وبلمحة بصر يهوي به على رقبة المجرم ، يسقط رأسه غير بعيد عن جثته التي هبطت على جنبها الأيمن ، عيناي تتفحصان رأسه الذي تدحرج بعشوائية وخيط الدم يرسم على الأرض خطاً مبعثراً ، صوت صراخ بجانبي .. حالات إغماء .. استفراغ ، وابن خالي يبكي ..!

لم أبتسم كما فعلت مع الخروف أعلاه ، لكني قلت ببرود لابن خالي الذي بدا مرتجفاً :

- يالله يالرقلة مشينا ..!

ليس مخيفاً

في حينا والذي يقبع بأقصىٰ الرياض كان بيتنا يتكئ بمدخله ، في الجزء الشمالي كان هناك بيت ملاصق لنا غير مكتمل بلونه الإسمنتي الداكن وبنوافذه المجوفة ، مرت السنوات ولايزال البيت كما هو .

ذات ليلة كنت نائماً بالملحق ، أفقت علىٰ صوت صرخة .. استعذت بالله وأكملت نومي ، قلت لوسادتي :

– ربما كان حلماً قبيحاً كعادة أحلامي المكرورة .. وإلا فما معنىٰ أن يلاحقني أحد أركض منه كثيراً ، أو أن أسقط من جبل شاهق .. لكني فتحت عيني الصغيرتين علىٰ صوت يشبه قرع الطبول ، بدا لي حلماً مستجداً .

شرعت باب الملحق ، كان الهدوء يلف المكان والظلام الدامس أيضاً ، مشيت باتجاه السور الذي يفصلنا عن ذلك البيت .. اقتربت من الجدار .. يبدو رطباً ، وضعت أذني عليه .. لم أسمع شيئاً .. قفلت راجعاً ، أحسست بالهواء وقد حُبس من خلفي ، لم ألتفت .. واصلت سيري للملحق ، دنوت من " الوجار" ، وضعت شيئاً من السمر وقمت بإشعال "الضو" بدأ الدفء بملامسة أصابعي .. وأنا أرقب اللهب أغطي ظهري بـ"الفروة" ، حينذاك .. سمعت صوت بنت صغيرة تغني .. لم تكن لغتها واضحة ..التقطت " التريك " من فوق "الوجار" متجهاً للبيت المهجور . تسلقت الجدار الفاصل علىٰ كومة أغراض مبعثرة .. اعتليته.. ونزلت بذلك البيت ، وعبر الممر الخلفي أخذت بالمشي .

علب فارغة يدحرجها الهواء .. بقايا طعام ، أعين قطط تلمع من بعيد وعلىٰ يميني نوافذ كبيرة ، اقتربت من أحداها سلطت الضوء بداخلها ، بلك متراص .. تكومات ترابية وجزم أطفال !

وضعت التريك على حافة سور النافذة ورفعت جسمي عالياً بيديّ لدخول هذه الغرفة ..
نزلت بها واقتربت من تلك الجزم .. والتي بدأت بالانكشاف لي
حينها .. بدأ صوت تلك الطفلة بالغناء من جديد ، سلطت الضوء عالياً ، كانت الجدران مشوبة بعوالق سوداء وخيوط تتدلى برائحة نتنة .
كان هناك باب يفصل هذا الغرفة عن صالة كبيرة .. أخذت بالتراجع للنافذة قافزاً منها لذلك الممر وكـ قرد صغير تسلقت الجدار ، نفضت ثيابي متجهاً للملحق .. وضعت رأسي على مخدتي الدافئة ونمت .
بعد ربع قرن ، مررت بذلك البيت
كان الوقت ظهراً .. أوقفت سيارتي أمامه ، بدا البيت مطلياً بالأبيض .. وتتوزع تحت سوره أشجار مهملة وأمام بابه يقف طفل أسمر .. ويرتدي نفس تلك الجزم التي رأيتها !

مقهى الخيمة

98 م ، كانت الحصة تشير للخامسة ، المدرسة الحكومية تغرس الزجاج على حواف جدرانها الخارجية حتى لايهرب الطلاب .. لكنهم كانوا يفعلون ذلك ، فهد فايز .. أسمر ، سمين و .. الذي يمتلك سيارة حينها .. إذن هو الصديق الأقرب للجميع ، حين نخرج نذهب لمقهى يدعى " الخيمة " مقابل التشليح بجانب الرياض الشرقي .. مقهى قبيح ، بلوحة وضيعة ، يتشارك رواده تلفزيوناً واحداً بالصالة الداخلية ، الاسمنت الملطخ بالأبيض ، أسلاك الدش ، الموكيت الرخيص ورائحة الدخان ، بنفس الصالة الموبوءة غرفة يفصلنا عنها مايمكن أن يكون حائطاً قصيراً ، هناك يُطبخ كل شيء .

الوقت كان صباحاً لذا لم يكن بالمقهى إلا مالكي الشاحنات المنهكين ، وغريبو الأطوار الذين يمدون " ليّات " الجراك وصولاً لأفواههم الكادحة جلسنا ، طلب فهد شاي بثقة المعلم .

اختطف أحدنا الريموت كنترول ، بدّل القناة المملة ، أخذ يقلب القنوات .. حتى سقط على قناة روسية ، تتحدث بلغة جديدة علينا ، كان برنامجاً للأزياء ، لكنهن كنّ عرايا ، إلا من قبعاتهن .. كان عرضاً سافراً للقبعات ..!

كيف لا .. نحن الصبية الذين إن شاهدوا صورة لـ " بوسي " كاشفة العنق بمجلة ذات ورق رديء ، تداولوها كعبوة ناسفة ، وهرّبوها كمادة مخدرة .. الآن نرى نساءً لايرتدين شيئاً ، نحيلات كأن مرضاً أصابهن .. يتخطين مجموعة من المهتمين بالقبعات تلك .. صدمنا ، ابتلع من بجانبي ما اختمر بفمه من الشاي ، في حين قال آخر :

- ما كل هذا ؟

و.. صوت ذلك السائق الهرم وهو يسحب نفساً من شيشته يعلو :

- لا إله إلا الله !

التفت أحدنا لفهد الذي كان منشغلاً بمراقبة مايحدث بالشاشة ، يحثه :

- غيّر يا .. يا فهد .. غيّر

فعل ذلك مرتبكاً.. رتبنا أنفسنا وكأننا لم نرتكب شيئاً للتو ، قلت :

- حسناً .. كيف الحال ؟

كان الدش أمراً نادراً بالرياض ، بل أن عدد من يمتلكه يعدون على أصابع اليد ، ويعيرون بفعلتهم الشنيعة ، فقناة دبي كانت خزي بحد ذاتها .. أما المقاهي فتغلق بكل مرة يداهمها أفراد الهيئة أو من يحتسب معهم ، لكنها كانت المقاهي الأكثر شهرة وازدحاماً طوال الليل .. فتجد حين تعرض " Super Movies " فيلماً للكبار ، السكون وقد خيم على كل الجالسين ، كلهم ، تنتهي الحكايات حينها .. إلا من أصوات فرقعة الشيشة ، وحين لقطة فاضحة ما يصرخ أحدهم مشجعاً وكأنه شاهد هدفاً حاسماً .. كانت سينما بشاشات مصغرة تتوزع بزاوية كل جلسة ، يحتشد بها الرفاق ، والممنوع ..!

فهد عيد ، على أحدهم أن يخلد اسم هذا الرجل .. أن يصنع له تمثالاً تطوف حوله السيارات بدوار ، أن يُرسم على لوحة ضخمة يكتب تحتها " الرجل الذي لن نتمنى موته " .. فرغم أنه كان جيداً بالفيزياء على الصعيد العلمي ، ويدهشك بقدرة جمجمته الشاسعة على احتواء حكايات الطاقة والكثافة والنظرية النسبية بقية تلك الأشياء المرهقة ، إلا أن جدارته – بالنسبة لنا على الأقل – تكمن بأن لديه تحفة نادرة ليست عند معظم سكان الجزيرة العربية .. حين تربعنا للمرة الأولى كلٌ بحضنه كتابه بعد أن كررنا أسئلتنا عن الحال .. شغّل " أبو عيد " التلفاز ، صوت بلغة جديدة ، رفعت رأسي كانت قناة لا أعرفها .. لم تكن تلك التحفة النادرة إلا " قناة أوربية لمن هم فوق 18 " ، سحبت الكتاب مع فوق حضني متنكراً له ، رفعت جسدي الذي زحلق تدريجياً لأرصد مايجري ، بدا لي الأمر تطوراً أكثر جرأة عما شاهدته بالمقهى ، احتقن وجهي .. تصفحت وجه فهد بدأ متماسكاً ، أعدت مسار وجهي لسيرته الأولى .. كل تركيز علماء الأحياء وهم يشرّحون حشرة ملقاة على ظهرها كان بعيني .. اختلطت لدي كل المفاهيم والتابوهات ، شعرت أن فمي متسخ .. لا أعلم مادخله بالأمر لكني شعرت أني متورط ، خوف عارم من أن يُكتشف ما اقترفت .. فقد كان الناس قانوناً كثيراً أقوى من قوانيننا الداخلية .. قطع كل ذلك صوت التلفاز وصديقي الفيزيائي يقفز من قناة لأخرى . كان ماشاهدته نظرية جديدة ، تعلمتها مبكراً .. لن يفهمها أحد ، بمن فيهم فهد عيد !

كلام شوارع ..!

خطوات تقدمية لاتطأ أحداً

من أفواهنا التي خضبها الصمت :

لـ متاهات المؤمن : الذي شبع جوعاً .. لما تبقى منّا ، لفضيلتنا المتفاقمة . لجدران المدينة الرديئة .. للأقدام المنبسطة التي تركل الضعفاء كـ علبة جوفاء . للأوراق التي لم توار سوءاتنا ..

لخطوطنا القانية ، سنحيك شيئاً من الحكايات التي تدلت أرجلها الشفافة .. بنا من الشرود ما يجعلنا لانهتم إن خنقت هذا الشيء.. أو تتبعت عيناك الآتي .. لن نقذفك بالدعاء بأن يمدك الله بالعون أو أن تبتلع قضاءه وقدره .. لن نفعل شيئاً ثميناً لك

لن تستعيذ بالكبار ليركلوا كلماتنا الصغيرة ..أليس كذلك ؟

أو أن يشدوا تلك الحكايا لتبدو أكثر نضارة ، أن يخلقوا منها كائناً يرتدي نظاراتٍ محفوفة بإطار بني و يزرعوا بوجهه شعراً منسدلاً وآيات تصفيق ، أذهب وقل لهم أن : يغربوا .. عن ماسنكتبه

- نسخة لـ : لا أحد

* المجلس الأعلى للكائنات الفاضلة

استيقظ إنهم يكذبون عليك ..!

بالشارع ، هنا حيث تدوس أقدام المؤمنين ، الملاحدة ، الأسوياء ، المنحرفين ، المصلين والسكارىٰ .. أولئك الذين يخافون الفضيحة وكلام الناس والمتدثرين بشراشف النقائض .. المرتشفين أقداح الخصوصية وكل من لايفعلون ذلك والذين يجمعون السعادة ككومة قش .. يذروها الصباح و النباح!

لكم أن تتخيلوا – ولكم أن لا تفعلوا – أني نشأت وأنا منتفخ بفكرة أننا الأنقياء ، أتذكرون تلك الهرطقات الطفولية والتي تجعلنا نرىٰ آباءنا هم الأقوياء جداً لنكتشف فيما بعد أنهم الحلقة الأنشف ، تلك كانت الفكرة .. لم تذهب السكرة ، فلازلنا الأنقىٰ / الأتقىٰ ، ولسنا الأشقىٰ بالطبع !

أتعلمون ، حين نقتات علىٰ هياكل من المعرفة وأصنام التهمها الدود والزمن نصبح الوحيدين الذين يغرفون من موتاهم ليسقوا أحياءهم .. بل إن بعض أولئك الموتىٰ لهم من السلطة ماليس لدىٰ ربع مليون حي وهو تفرد نحسد عليه ومنجز حضاري يغبطنا عليه أبناء عمومتنا الكفار الذين نصفعهم بأدعيتنا كل مساء .. ألم تسمعوا يوماً بحدوتة الغراب الذي ضيع المشيتين ، نحن ذاك لكننا فقدنا قدرتنا علىٰ المشي مجدداً !

وقبل ذلك لدينا السياط .. الجلاد وزمرة " الكويسين " ومجموعة هائلة من الضحايا وخراف التجارب والمضحوك عليهم والضالين . صدقوني – لا يهمني إن لم تفعلوا – أني أحياناً لفرط مابي ، أفرك صحن غدائي .. أنتظر مارداً أن ينبثق لي من بين دفتي رغيفي صارخاً بوجهي :

- لبيك أيها المهمش

سأقول له دون تردد أوهمس .. أريد نصف درزنٍ من النساء وخمراً ورسائل مجانية لمدة شهر وقصراً يتسع لسياراتي العشر بأحد أحياء البرجوازيين وأن يكف كلاب المدينة عن نهش خطواتي .. ولعق أعقابي المكبوتة

لم العجب ؟ هل تتوقعون مني أيها المثاليون أن ألمع أعناق الرغبات كما تفعلون ؟ لست أنيقاً و كاذباً ، مثلكم !

سأصرخ .. سأمد رجليّ صوتي على قدر لحاف وجعي وحلمي وسأنفث : طز كبيرة ، بوجوه المطبطبين و المبتسمين و" بتوع " كل شيء تمام

سأكون مثقفاً لاتعنيني البنيوية والتفكيكية بالأدب التشيكي ، ولا تروقني صراعات التيارت " الخرطي" .. لن أسكن برجاً عاجياً نتناً ، مادام البعض هنا يتضور جوعاً معرفياً وضياعاً سافراً ، سأصبح متديناً .. لكني لن أقدم خطابات القرون الوسطى كـ عصا مقدسة تلهب ظهور الضعفاء الممتلئين شعوراً بالذنب ، المتفانين في سبيل القطيع .. المتكررين بإخلاص

سأكون أديباً تنخر البلاغة جبهتي لكنكم لن تتسخوا برؤيتي وأنا أتحدث عن سمائي المنبثقة من بين نهدي حبيبتي ولا بالألق المتسربل من قفا العتمة المتبتلة بمحراب التونه.

حسناً سأكون : الشارع .. الذي يحكي كل الحكايات ، حتى تلك التي تلبس المنفى تحت عباءات الوطن .

رجاءً.. لن أستمع لأولئك القوم بنظاراتهم المدببة وهم يشرحون لي ما يحدث ، لن أتكئ على جبنكم أيها القوم وأنتم تمطمطون شفاه الكلام وترفعون حواجب التبرير ، لن أتوكأ إلا على الرمادي من الأرصفة ، وحديث البسطاء .

و.. سأكتب على جدرانكم الفارعة كـ ليل لاينجلي أغنية الفلّاح الصعيدي هذه :

كل عام والبلد كويس .. والرز كتير
سمعا .. طاعة يافندم حـ نّام بكيّر
احكي لينا يامعلم ..
يالله ياكبير ..

::

كان يابابا أنتا
وهيّا وهيّا
حالة تمسّي
وتصبّح هيا .. هيا
الأصوات بتموت
واللي يفوت يفوت
والباقي بيحمد وبيصرخ :
ميّا الميّا ..

::

الناس النايمة بتصحى

بـ خمسة وعشرين

والزفت اللي بـ عشرة

صاربـ عشرين ..

::

اللي بيلهف بيئولك :

عاوزين نعيش ..

واللي يشوف اللي بيلهف

يقول : يعيش

::

الشيوخ صاروا أكتر م الهم ..

والمسقفين أوي ..

وبتوع الـ سم

أبشر طال عمرك

أبشر ياعم ..!

،

أما أنت يا " مساعد " فستلتفت وراءك وستحاول أن تطبطب على غضبه وتمسح أنف ثورته بكمك ثم تقول :

- إن الوطن يا ابني قسمة ونصيب ، فقد يخلقنا الله في راوندا وقد ينبتنا عز وجل في نيويورك وقد لايخلقنا بشراً أصلاً.. ربما جعلنا أغراضاً ملقاة بأحد شوارع البيرو الخلفية . أو حيوانات غريبة في أدغال غانا ، أو قد نموت قبل أن تصبح أشياء حتى .. ثم أدبج له موشحاً عن الصبر ، وكيف له أن يصبر .. أن يمشي ويصبر أن يصبح آلة صبرٍ تلبس ثوباً وأن يحسن التصرف كالشطار وأن لايشنق نفسه من علٍ ، وأن لا يشتم إلا حكام .. المباريات ، ذكره بأننا لسنا سيئين كثيراً ونشكل قبيلة من المواطنين المدهشين ، فائقي الجودة والذين لم يخلق مثلهم بالبلاد ، أنصحه أن يبتعد عن مزالق الزلل ووحول الفتن وأن لا يكون أداة في يد من يريدون تمزيق المسلمين . لاسيما وأننا قوم مستهدفون جداً ، ومنهوشون من كل جهة .. فحسبنا الله ونعم الوكيل ..

ثم : صوت بكاء .

بعدها سأصرخ بكم من بعيد:

- وقف التصوير .. وقف التصوير ..اتفقنا ؟

* المخرج : خالد عطا الله يراجع مع حفنة من الممثلين مشاهدهم بمسرحية " لاتغضب " .. للمرة الثالثة - المسرح الوطني

وهم الفضيلة : رذيلة ..!

كوني أمارس مهنة التعليم هي أن أمارس بعضاً من ساعاتٍ سيئة وتفاصيل تبدو موحلة للذين لم تتسخ أعينهم .. فتعاطيهم الوهم بأنهم أتقياء ، جعلهم يثملون بالفضيلة .. والفضيلة فقط .

السبت : العاشر من رجب لهذا العام ، الأيام تتكرر حاملة ذات الحصص .. الأشياء تبدو متجمدة ، وتفاصيلنا لاتنمو .. فصل أول / ثالث وبتعريف أقل تهذيباً (مقلط) مع سبورة .. أجساد متضخمة وكأن أطناناً من الخميرة قد غرست للتو بها .. قابعين على كراسي خضراء ومستقبل أسود .. لا يبدو ذلك غريباً .. صدقوني الأخطاء المتناثرة تبدو أكثر حلكة . أعين تجري بها حكايات فتية ومتمردة لا أمّل قراءتها ، بين دفتيها يمارسون ذنوبهم ليغتسلوا بعدها بماء البراءة .

يطرق " فهيد " علي باب الفصل بينما أشرح لهم منهجاً أكرره خمس مرات يومياً .. يظهر رأسه قبل جسده ، بوجه ساهر وعينين جاحظتين وفم قاتم :

- أحتاج قلماً .. هل تسمح لي بأخذه من وائل ؟

- تفضل

يقترب من وائل يوشوش له .. ثم يخرج . كنت معلماً رأت الوزارة أن تعييني هنا يعد نعمة أحسد عليها .. لاسيما وأن الألف كيلومتر التي تبعد عن مدينتي أخف حملاً من أن أظل عاطلاً .

أنهيت حصتي الثالثة متجهاً لغرفة المعلمين .. دخلتها .. كان بعضهم متحلقاً حول الإفطار يتجاذبون أطراف الأحاديث السعودية المعروفة .. جلست بعيداً أتابعهم ، قبل أن يلكزني أحدهم بجانبي دون أن أشعر :

- أهلا أستاذ

- أهلا بك

- تبدو معلماً طازجا ؟

- نعم

- حياك الله ..ها كم نصابك من الحصص ؟

- أربع و عشرون

- قاتلهم الله

- وأنت

- مثلك .. أعرفك بنفسي بدر فراج

- وأنا موسىٰ عياد

- من أي العياد

- الحمدان

- من أي الحمدان

- السالم

- هل تعرف حمود السالم .. الذي يعمل موظفاً بالأحوال ؟

- ليس شخصياً .. سمعت عنه

- لا ؟

- نعم

يدخل أحدهم يرتدي غترة بيضاء بذقن خفيف يسطر جانبي وجهه :

- السلام عليكم ، هنا تعميم وضعته علىٰ الطاولة بشأن الترشيح للإرشاد لاتنسوا من فضلكم التوقيع عليه .

مال لي من بجانبي وقال :

- لعلمك هو شيعي

تظاهرت بأني لم أسمعه .. سألته :

- هل سترشح نفسك للإرشاد ؟

- يارجل لايهتمون إلا بترشيح الحضر

التفت أحد من كانوا يتحلقون حول الإفطار قائلاً :

- لايلامون !

- مارأيك أن تسكت أو تكمل إفطارك يا "أصفر العرقوب" ..

اجتاحتني رغبة عارمة بالضحك لا أعلم لم .. لكني تمالكت نفسي :

- دعوها فإنها منتنة

كنت أعلم أن استحالة تزحزح هؤلاء عن قناعاتهم المعشعشة كاستحالة أن يرقص جبل طويق البالية ، أو يفوز منتخبنا بكأس العالم ، هم ضمن تلك الحزم من البشر الذين يملكون شهادات جيدة وملابس جميلة وحياة هانئة .. لكن بعقول رثة / بالية .. وعي ماقبل عصر الإزفلت .

قرع الجرس قبل أن يطل المدير برأسه :

- يا أساتذة ، الفصول خاوية منكم .. ساعدونا جزاكم الله خيراً

نهضت متأبطاً دفتر التحضير ممسكاً بأقلام السبورة ، فرشت جدولي بين يدي :

- ثاني / رابع .. يامعين

يقبع الفصل بالدور العلوي وتحيط به غرف صغيرة أخرىٰ ، الطلاب يتناثرون بالممرات الضيقة

- فصلك ياطالب .. عجّل

وكيل المدرسة صارخاً مع عصا طويلة يهش بها على الطلاب لدفعهم ، لفصولهم بينما يسحب آخرون أرجلهم إليها غير مكترثين ، وبنفس الكلمات التي أعيدها عند كل فصل .. أقف أمامهم

- اجلس ياولد .. اقطع الصوت ، من منكم وكالعادة نسي كتابه .. أيقظْ من يجلس خلفك يا ابني

يغمز أحدهم رأس زميله النائم خلفه

- قم .. قم

- ماذا تريد ؟

- الأستاذ ..استيقظ

- فقط أغرب عن وجهي

أطرق رأسه بأصبعي ، لينتبه :

- اصحَ يانائم

يرفع رأسه متثاقلاً .. يتطاول الطلاب ليروا المشهد

- فك " اللطمة " .. وقف

- لم كل هذا ؟

- افعل ذلك وحسب

أتمعن وجهه :

- ألست أنت من أزعجني بالأعلى يريد قلماً .. حسناً ما اسمك ؟

- فهيد يا أستاذ

- فهيد .. آها .. ألديك قلم الآن ؟

- نعم ..

- جيد .. قم اغسل وجهك وانتظرني عند غرفة المرشد الطلابي

- أين هي غرفته ؟

يجيبه أحد الطلاب سريعاً :

- بجانب غرفة المدير .. أسفل

يكوم شماغه فوق رأسه كيفما اتفق .. ويخرج ، فيما بعد ، حدثني عنه المرشد الطلابي وبأن لاجدوىٰ من إيقاظه فليست هي أعظم مشاكله لديه سجل من التجاوزات المشينة .

أخذت بقراءة محاضر سلوكه ، كنت مصدوماً من أن يفعل كل هذا طالب لايتعدىٰ الرابعة عشرة .. كان فهيد طالباً شاذاً .. لايشكل لديه فرقاً إن كتبت عنه أو لا ولن يبالي إن صرخت بوجهه كما نفعل نحن الكبار لنجعل الحقيقة متحجمة .

لن يفعل ما أريده .. لايبالي برؤيتي للحقيقة ، سأحدثكم عنه لن أفعل أكثر من هذا .. فهيد يميل لصاحبه وائل ، جلسات المرشد العجوز الإرشادية وصفعات المدير بيده المنتفخة علىٰ خده ، تعهدات الوكيل .. عشرات العظات التىٰ تتدلىٰ فوق رأسه لم تجدِ نفعاً .. مناهج التربية التي ينحتها المخمليون يحفظها عن ظهر قلب .

فهيد .. لايزال كما هو ، مايجعل الأمر جديراً بالصراخ هو أن الطالب : فهيد مفلح ليس حالة شاذة يخبئها فلاسفة الطهر تحت أكمامهم ، هناك الكثير منه.. يمارسون تسكعهم علىٰ أمكنتنا التي اعتقدنا أنها : بيضاء تماماً لـ.. يفضحوننا جداً

* موسىٰ عيّاد

يكتب مذكراته بحصة فراغ

مدرسة الليث بن حسن المتوسطة

سورة الفاقة

ليس لكم .. بل للعجوز* التي اتكأت على جدار ذات عوز تناشد أحدهم أن يعطيها لو " لحم حمار " تسد به رمقها ، للضمير المستتر الذي سيغرس يده هناك .. ليراها الله أو نحن . سأكتب الآتي :

(1)

صفصفتٌ ارتجافات يدها

رفعتها لتصافح الشمس

فـ أظلم وجهها

(3)

متخمة بالسخط

حدّ الرضا..

(9)

نحت الله عليها :

بقايا رغيف..

وشعب جائع ..

(21)

كلما شعرت ثيابُها بالبرد

تلحفتها ..

(45)

وكلما هبّ أنينها

تساقط ماتبقىٰ منها..

(52)

صباحاً:

تعتصر ماتبقىٰ من جدب بارحتها

لـ تعتق صبرها..

* تعريف : العجوز ليست صيدة منبرية يسوق لها مروجو الشعارات وسقط القضايا، هي تناشد الأفواه المعوجة من فرط العلو .. وأصابع القوم الذين جعلوا منّا أحجاراً شطرنجية وأفلاماً قصيرة .. بوقت ما أصبحت أشهر من فنانينا الذين لايتقنون حتىٰ التعبير عن أنفسهم ومن شعرائنا الشعبيين الذين فتكوا بالمايكرفونات ، ودهنوا مسامعنا بهرطقات القرون السحيقة ومن مشائخ التفخيخ الذين صنعوا من مؤخرات المراهقين عبوات ناسفة ومن مثقفي الإفلاس الذين حولوا الثقافة لشأن نخبوي غريب الأطوار وبشكل آخر هي ليست "كورجية" تضخ لأقدامها المحنطة ملايين الريالات ويساوم عليها " الدفّيعة " قبل أن تتمغط صورها علىٰ أغلفة

مجلاتنا . هي ليست مسؤولة مات قريبها فتوحدت بصفحة " نعي " ، ومع هذا ، هي أكثر طهراً من كل الأشياء المعتقة سخافةً هنا .. وعلواً عن كل قضايانا التافهة والتي دسّوها أولئك ليلفتوا انتباهنا عن المهم / الأولوي .

ليست كومبارساً حتىٰ بتلك المسرحيات التي يمكن للمرء أن يشارك الآخرين مشاهدتها وتحكي عن حواديت الصراع الفكري المزعوم بين طرفين موهومين .. لت وعجن بقضايا ثانوية تتحول بعدها إلىٰ حرب مناكفة كتلك التي تشتعل بين "الضرائر " ..

جانبي النزاع المضحك بين الليبراليين والصحويين تلك "الحدوتة" المتضخمة التي ضحك بها علىٰ المتحمسين وبياعي الكلام والمصابين بـ شبق الشهرة .. الجميل بالأمر أننا حتىٰ بـ إيدلوجياتنا تنتصب لدينا الـ " فزعة " والشللية ومع كل الاحترام للأخوة الذين لايزالون يتسابقون خلف الصحوة / الليبرالية فقد طارت الطيور بأرزاقها وأصبح عرابيها " ستارز " بعد أن " لهطوا " لهطتهم الكبرىٰ مخلفين وراءهم مجموعة من المغشوشين ، أولئك المضحوك عليهم بدوا أقل ذكاءً وأكثر " طفاقة " وأضيق أفقاً من أساتذتهم الذين جعلوا صراع / صراخ الديكة هذا يعلو أصوات الحق فـ يحولها نشازاً !

* إبراهيم سلمان

يصدر جريدة رسمية

مقبرة النسيم

بلد الـ : عيباه..!

زوجتي الماضية : نورة ، حين تقرئين الرسالة سأكون بالقطار الذي يصل فينا بسالزبورغ .. أعلم أنكِ لم تركبي يوماً قطاراً هناك ، لكنه يشبه إلى حد ما لسانكِ .. لاتقلقي كثيراً فبطاقة السحب الآلي ستجدينها بثوبي الرمادي المعلق كـ حظي .. ملصق على ظهرها الرقم السري وهو تاريخ زواجنا الذي لا أحفظه ، بخصوص ما فعلت فأستطيع أن أفسره بأنه : هرب . لست شجاعاً دائماً ، لكني لا أريد أن أذبل .. فوجوه من ألتقي بهم .. تقاطيع وجوههم المليئة بالبؤس ولعنات الجدران والجو القبيح .. تفاصيل موت الهمّة / التفاؤل / الحياة شرودهم الدائم وهيئاتهم الشبيهة بالدراويش .. حالتهم الصعبة كفيلة بتجفيفي ، إن حدثتهم عن أمر عام رددوا :

- خلها على ربك ..

وإن أخبرتهم عن حدث جلل قالوا :

- الله يعين ..

أنا هنا الآن ، بالنقيض بإحدى تلك الدول الكافرة والتي شاركت إمام مسجدنا الدعاء عليهم ذات ليل . هنا ، بأحد تلك الأمكنة التي تحوي أتعس البشر كما خيل لي .. ونحن أمة الله .. لا أرى شباناً هنا يلاحقون امرأة لايبدو منها إلا عيناها ، أو سيارة ضخمة تطارد آخرين .. أو زوجة يتقاطر خلفها سبعون طفلاً .. أي : أشياء تتفردون بها هناك . ذكرتكِ حين لم أسمع إحداهن تقول لزوجها :

- اذهب بي بيت أهلي .. لأنه لم يشتر لها فستاناً يطير بنصف راتبه

أو أحد الكادحين يحمل ورقة " مقاضي " أطول من تعاستي ..يا الله .. سأنضم لقوافل " ذو الأربعين خريفاً " ، سأبعث من جديد .. أتعلمين أيتها السابقة ، الأربعيني منهم يعيش يومه

دون مركبات التعقيد .. ببساطة أراه يقطع الجادة بـ تيشرت كلاسيكي وشورت داكن .. يبدو عشرينياً تبارك الله .. لا أريد أن يتعثر بفعل عيني الحارة أو كما تقولون .

خلعت" المنقود " عني ، أنا الآن ألبس مثلهم كما لم أفعل من قبل .. أشعر أن ساقيّ قد ولدت من جديد وشعري يشم الهواء لمدة خمس ساعات متواصلة لأول مرة .

بجانبي يجلس أحدهم ، أثق بأنه لن يشي بي عند الآخرين بقوله :

- ألا يخجل ، تخطىٰ أولاده المتوسطة وهو يلبس شورتاً .. يالعاره ..!

أو :

- يكاد يفتك الشيب برأسك ، وتفعل هذا .. واعيباه

صدقيني ، نحن لانحيا لنعيش .. نحن نحيا لـ نستعد للموت ، المجتمع الذي يقذف بالكثير علىٰ الله بينما ينفث الدعاء ، وهو ذاته الذي يتحدث عن الموت كتجربة جديرة بالحياة أكثر من الحياة .

المهم ، قال لي أحمد أنه يريد أن يتزوج منىٰ ابنة خالته البغيضة ، أعلم أنه لايعرفها ولم يشاهدها يوماً .. وأفهم أنه يريد أن " يكشط ويربح " كعادة زواجاتكم هناك لكن افعلي له مايريد ، ليتزوج وينجب نصف " درزن " من الأطفال ، تأكله القروض ويصيبه العته ثم يهرب .. كما فعل أبوه .

لدي الكثير لأقوله ، سأكمله لكِ غداً .. سيتوقف القطار بعد قليل بمحطة فرعية ، سوف أتناول شيئاً غير الأرز ، وسأدعو الله لكِ بالثبات .

* ماجد مطلق

يتفحص رجليه

القطار إلىٰ سالزبورغ

حيوان

مثير للشفقة أيها الإنسان، رغم عدم مقدرتك على إمضاء يومك دون صراع مع الآخر، وإن لم تجد فمع نفسك، إلا أنك تعتقد أن هذا الكون لك مع أنك لا تشكل إلا ذرة منه، جزءاً يسيراً من منظومة سبقتك بمليارات السنين.. مسكون بألا تدع كل شيء يمر إلا وتعرفه ، رغم أنه – واقعياً – لا يشكل لك أهمية ولا يصنع بحياتك فارقاً.. تخشى من هجوم كائنات فضائية عليك رغم علمك بأنهم ليسوا انتحاريين للحد الذي يجعلهم يتورطون بك وبالمكان الذي نكلت به ، فهم يعرفون شغفك للحروب العالمية التي تتسلى – حتى يحين موعدها – بحروب صغيرة تمارس فيها هوايتك بقطف رأس أخيك الذي تختلف معه على رقعة أرض قاحلة ، أو أن القدر جعله يولد بدين لايبدو أنه يناسبك .

تصر على تحديد مصير من يشاركونك الكوكب بل وتستعملهم ، تضيق عليهم في كل مكان تلتقيهم .. من الذي أعطاك الحق لتحقن فأراً مسالماً بمخلوطاتك الكيميائية لتبرهن على عقار تبتلعه أنت وأولادك لتحيا عمراً أطول ؟ بينما الحيوان الذي صببت جام حماقتك عليه مات وأنت لم تعمر أكثر؟ أي امتياز جعلك تختطف قنفذين من إثيوبيا، لتراقب ومجموعة من المهووسين بتسجيل الملاحظات طريقة تزاوجهما بمختبر بائس، أترضى أن يرقبك أحدهم وأنت بقفص مع زوجتك ليلاً ؟ سيطفح الغضب من رأسك ها ؟ بينما غيرك حلالٌ ما تفعله به..

ولنفرض – جدلاً – أنك امتلكت خارطة طريق حياتهما الخاصة، كل ما سيفيدك بالأمر هو أنك ستضع ملاحظاتك بكتاب يقرؤه شخص ما ليقول: "فعلاً هذا القنفذ شيء غريب".. لا تكتفي بهذا بل تمتص الأنهار لتشرب، تجفف البحار لتستحم، تقتلع الأشجار لتدفأ، تعتصر الغيوم لتستمع بالمطر، تسكن فوق ما تسحقه الآلة التي طورتها.. ببساطة تجعل الكوكب يغلي ثم تبدو

قلقاً من المستقبل الرمادي الذي تسببت بتعجيله.. صديقي الإنسان، سيكون المكان الذي تطحن تناقضاتك عليه أفضل، لو أنك اعتزلته أنت ببساطة، ستجعله جحيماً.. لن تهدأ إلا حين ينشطر نتيجة أفعالك إلى نصفين، مسبباً الفناء وموديا بحياة الكائنات الأخرى إلى الانقراض..فليس من المنطقي أن تتحدث عن سلام وبين يديك بين آلة خطرة لاتفصلها عن سحق نصف الكرة الأرضية إلا زر ، يصفق بعدها النصف الحي المتبقي لقرارك الحكيم ذاك .

ليتك تدع غيرك يشاركك الحياة التي لم تصنع لك وحدك، وتتنازل عن كبريائك وتتفهم أن للآخرين ممن لا يشبهونك حقاً بهذا المكان مثلك .

* فواز عتيق

يحاول الخروج من قفص أسد

حديقة الحيوان – الملز

ملاحظات

- وراء كل رجل عظيم .. مبلغ من المال

- أن لاتكون حجر شطرنج ، فهذا أمر ليس بيدك ياصديقي .. لكن حاول أن لايساعد تحريكك على انتصار من لايستحق

- الحراك الفكري السعودي هو حراك " ضرايز" يتنافسن على زوج يجلب الشفقة

- كلما تكاثرت الخطوط الحمراء بمجتمع ، تكاثر تخلفه

- يا صديقي ، لا تخض معركة لديك فيها ماتخسره ، مع أناس لاشيء لديهم ليخسروه ..

- الانحناء للظلم لايعني عدم إرادة الحرية ، بل الخوف من دفع ثمنها

- كن مرناً يا صديقي.. فأفكارك التي تتطرف بالإيمان بها الآن، قد يأتي اليوم الذي لا تستطيع أن تصف كم كنت موهوماً حين اعتنقتها

- يموت الجبان أعمى ، وهو يرى

- شكك بأنك ترتكب خطأ أهم من يقينك بأنك على صواب

- هم يخافون من الأفكار .. ليس لأنها بشعة بل لأنهم جبناء

- أي فكر ليست الحرية جزءاً منه ، فهو فكر مريض .. مهما كان براقاً . يستعمله المتسلط ، يتوهم به الخاضع ويتعاطف معه الجاهل

- كون الفكرة قديمة لايعني أنها مقدسة

- للإنسان القدرة على السخرية من عقائد الآخرين بنفس القدر الذي يتطرف فيه تجاه عقيدته

- لتسيطر على الإنسان اجعله خائفاً أو جاهلاً

- ينجح الزواج إن علمت المرأة عن الرجل أكثر مما تجهل ، و علم الرجل عنها أقل من المفترض

- الذكرى : عكّاز الحب

- أنت تريد وأنا أريد ، وأحدهم يفعل بنا ما يريد

- ما تحتاجه المرأة يا صديقي هو ألا تحتاجك

- أعتقد بأن الحياة لعبة ، نكون صغاراً حين نعرفها وكباراً حين نفهمها وموتى قبل أن نتقنها تماماً

- الحياة : أثمن قضية

* المنتحر : غ . ع

أوراق بجيبه العلوي

الخلية التفكيرية – شقة 18

لا تؤذي الموسيقى أحداً

هل رأيت كماناً استحال يوماً سلاحاً ؟ أو سمعت بموسيقيّ فجر نفسه بعد أن غرس ديناميتاً بـ.. فمه ليتناثر بعدها أشلاءً ونوتاً..؟

أو أن جمعاً من العازفين تحلّقوا بعد البروفات ليخططوا لفعلٍ ينتهك الحياة..؟ تخيل معي أن مارسيل خليفة مهتم بصنع قنبلة بدائية أطلق عليها اسم "طفل وطيارة" !

أو أن فيروز فخخت نفسها ذات صباح ثم صرخت بأغنيتها قبل أن تتمزق:

"مش فارقة معاي" ! هل من المحتمل أن تجد صورة زياد الرحباني مبتسماً ضمن المطلوبين على قوائم إرهاب البشر وقد كتب فوق رأسه "أنا مش كافر" ؟، أن يوزع طلال مداح الكُره على العالم وهو يغني "أنا راجع أشوفك".. أو أن تميت "رسايل" محمد عبده الإنسان فينا..؟

عنّي، لم أشعر يوماً بعد سماعي للحن جميل أن علي أن ألتفت لمن بجانبي بوجهٍ يكاد ينفجر تشدداً قائلاً :

"هيا، علينا أن نقطف رأس شخص لا يشبهنا بمكان آخر في هذا العالم اللعين".

لا يمكن أن تفعل الموسيقى بالحياة قبحاً كهذا، فهي تنزع فتيل البغض، تؤسس لحالة من السلم الإنساني، تحاول جاهدة التوسط بين صراعاتنا التي نرتكبها على الدوام . هي الفعل النادر المتفق عليه بين البشر.

لذا يا صديقي، الكرنفال الذي تحتفل فيه بوأد الفن لن يغير من توق الإنسان تلقائياً نحوه منذ عهود أغنياته الأولى ، واستعراضك حين تجتمع مع صحبك المهتمين بتجميع الآلات الموسيقية لتكسيرها على الملأ ومطالبتهم بالتكبير معك وكأنك تصنع مجداً لن يبدل من تذوقهم للإبداع.. آلة العود المسكينة التي سحقتها تحت قدميك مبتهجاً، ليست مذنبة، والمشاكل التي تعتقدها لا

دخل لما ترتكبه من تحطيم بحلها.. ما تعتقده أنت من بطولات صنعتها حين خلقت عدواً وهمياً لتمارس عليه حربك هي: وهم.. ليست أبعد من ذلك .

* أبو منى

يغني للمارة مجاناً - الشميسي

وطن من حكي

قبل أن ندفع مقابل صناديق : الرغي

هنا سـ أمشط شيئاً من " الحكي " والتي ربما لايرتبط ببعضه لكنها حتماً يرتبط بي ، حثني ذلك الجين المتلحف بي على أن أبوح به.. سيتخذ شكله البسيط تارة والبكائيات تارة أخرى .. قد أنزع به مزاجاتكم البهية ، وقد تشاركوني اللطم والقهقهة معاً . ربما ستغلقون هذا الشيء كـ باب قديم غرس بجسد بيتٍ من طين ، بعد أن تلعنوا الوقت الذي سكبتموه.. قد يكون التالي متحلطماً.. صادقاً . لا أعلم .. أعتقد أني لن أفعل شيئاً جزيلاً هنا

أن تسافر : عارياً ..!

هذه التفاصيل التي لازلت أذكرها على تلك الشاشة التي تصدرت أعلى الصالة :
الرحلة 315 .. الرياض .. 21:00 .. تأخرت ، كانت الإياب لعاصمة الحيطان والشوارع المتجعدة ، كان ذلك كفيلاً بدق الكثير من التعب بي وليلة أخرى من اللانوم ، بدأت بتشريح الخطط البديلة في حال إلغائها . صوت قبيح يقاطعني : على السادة المسافرين على متن الرحلة رقم 315 والمتجهة للرياض سرعة التوجه للبوابة رقم 5 وشكراً ، سحبت شنطتي كـ طالب سيئ يمم وجهه شطر مدرسته صباحاً ، وبطابور يشبه طوابير المخابز برمضان وقفت منصاعاً . كان أمامي من يبدو من مؤخرة رأسه أنه مدرسي الفيزياء أحمد أبو الفتوح عباس أيام الثانوية الغابرة ، منديل أبيض يحيط بياقته وقد تصبب عرقاً بينما تصببت بدوري شتماً للحدود اتفاقيات سايكس بيكو وأشياء سياسية لامجال لذكرها هنا .
بدأ الطابور البشري بالتزحزح ببطء وبدأت بدغدغة نفسي بالخلاص .. وصلنا أنا ورفيقي إلى السير الذي كان يدور بلا كلل ، وبدأ صاحبي الذي لم أرى إلا ظهره برفع شنطه السمينة لتفتيشها ، كراتين كتب عليها بخط أزرق بشع : الحجّة أم إسماعيل – الفيوم – شارع السلخانة ومصرورات خضراء ألصق عليها : ضد الكسر ، وشنط ضخمة أخرى .. تمت عملية إجلاء حاجياته بنجاح .. وضعت شنطتي السوداء كـ حظي تلك الليلة على سير بدا للوهلة الأولى أنه مضطرب قبل أن يصرخ بي موظف الجوازات :
– اخلع ..!
قلت :
– آفا .. وش أخلع ؟

امتعض وردد :

- الجزم .. الجزم

- لم ؟

- احترازات أمنية

ألقيت بجزمتي النتنتين ، وكذلك كبكاتي .. ساعتي .. أقلامي .. محفظتي وجوالي

أحسست بأني كائن حي على وشك التعري وأشفقت على من يقف خلفي لا لشيء إلا لأنه سيرى ماقد يجعله مصاباً بعقدة نفسية تلاحقه على وسادته ليلاً أو أن يخوّف أبناءه العاصين له بقوله :

- سيأتيكم من رأيته بالمطار عارياً ليلة البارحة

بدأت بفك أزرار ثوبي .. قبل أن يتداركني :

- مالذي تنوي فعله ؟

قلت :

- سأضع ثوبي على السير

ضحك قليلاً وكأنه يقول :

- أي مصائب هذه يارب العباد

عبرت ذلك الباب بجواربي حافياً مفتوح الأكمام كـ متسول حقيقي ، تجاوزته بسلام وأنا أعيد مافقدته مؤقتاً ، تسارعت خطاي كمن يعتقد أن الطائرة ستمد لسانها له وتتركه .

دخلت الطائرة .. حسناً الكرسي B13 ، عبرت الممر بين الكراسي .. لفت انتباهي حينها كهل يقبع على يساري أغبر الثياب ، أشعث بلحية مشتتة خالط البياض فيها سوادها وقد بدت إحدى عينيه بيضاء .. كان يتمتم بما لم أسمعه حتى ارتفع صوته تدريجياً :

- لاإله إلا الله ، لاحول ولاقوة إلا بالله .. سترك يارحمن ، سترك

أخذ بتكرار ذلك .. أحسست بأني على وشك خنقه ، فلاشيء كان ينقصني إلا هو ، رفعت عيني عنه عالياً ، كان يقبع بالكرسي : A13 ، بلغة أخرى : كان بجانبي .. أخذت بالتردد وربما الهرب قبل أن تخاطبني المضيفة :

- تفضل على كرسيك

ابتسمتُ لي ولسان حالها يقول :

- بسرعة ..!

التفت لزميل رحلتي ، ابتسم لي هو الآخر لكن ابتسامته كانت مختلفة بعض الشيء كان يبدو أثرم ، لكن ذلك - وللحق - لم يكن ذلك الشيء الوحيد الذي يبعث على التطير به .. جلست بجانبه كانت عينه متشبثة بالنافذة وهو يتمتم بكلام سمعت بعضا منه :

- سنموت كلنا يوماً ما ، سيزورنا حتماً

ألقيت برأسي بين يدي ، فركت جبهتي .. رفعت رأسي عالياً بدت الأصوات تغوص تدريجياً ، أخذت عيناي بالتجول بتفاصيل الركاب المتداخلة .. ذلك يحشر شنطته بالأعلى وآخر يطفئ جواله .. خطوات بلا صوت .. أيدي متموجة وأجساد متحركة ، رفعت يدي للمضيفة سألتها عن إمكانية تغيير مكاني بلا سبب حقيقي .. لكنها جاوبتني بلطف :

- عذراً المقاعد مشغوله ، كلها

أخذ من بجانبي يهمس لي بصوت غير مريح :

- حتىٰ وإن سقطت فإنه قدرنا ، لامفر عنه ولا ملجأ

صوت الكابتن يثرثر كالعادة عن إمكانية أن تكون الرحلة ممتعة .. كنت أقلب الأفكار السوداوية حينها والتي غرسها هذا المتشائم بجانبي ماذا لو سقطت بنا الطيارة من علىٰ ارتفاع 39 ألف قدم ؟هل سيجمعون أجزائي كـلعبة puzzle أم سيبحثون عن رأسي الصغير طويلاً ، لابد أنهم سيفعلون ذلك .. ما الذي سأصنعه في الوقت الذي نهوي به ؟ هل سأتصل بأحدهم لأقول :

- حسناً ستسقط الطائرة الآن .. نلتقي عند الصراط فيما بعد

أو سأبعث بـ رسالة لصديقي قائلاً :

- ستجدون أنفي بيدي

أم سأصرخ وأنا ممسك بشعري :

- سأموت !

أغلق فمك ، استغفر الله ماهذا بحديث مؤمن ، قمعت نفسي .. أحسست بيد خشنة تمسك يدي ، جفلت قبل أن يخاطبني ذلك المشؤوم :

- في عام ألفين قلت لخلف العلوي أن طيارتكم ستهوي ، كان يضحك ، هوت بالبحر ..

توزعت أشلاءهم بـ....

قاطعته :

- ياعمّ ، ماقضيتك ؟ ألديك مشكلة معي ؟ هل أنت تمثل دوراً ما هنا ؟ كف عن ذلك بربك

فلازلت أحاول التماسك .. تبسم خجلاً وأشاح بوجهه ناحية النافذة وهو يقول :

- لك ذلك ، آسف

أصوات المحركات وقد علا هديرها وصوت شخير من بجانبي أيضاً

قلت بنفسي :

- فعلاً ، مالذي يريده رجل كهذا بالحياة .. يبدو منطقياً أن يتحدث عن دنو أجله .. لو كنت مكانه لعزمت قدري على فنجان شاي وتوصلت لحل وسط معه

رد علي بشخير متقطع ، تنفست من الصعداء القليل بعد أن سمعت طنين فك الأحزمة ..

أضواء المدينة بدت بالتلاشي ، كنا نبتعد .

سحبت تلك الرواية التي كنت قد خبأتها بجيب شنطتي ، دفنت عيناي قراءةً بها.. اكتشفت فيما بعد أنها لاتستحق الحبر الذي سفك من أجلها ، صفعت دفتيها ببعضهما وأرجعتها سيرتها الأولى . أخذت بالتململ ، تفحصت أصابعي .. تبدو حمراء نحيلة ، قمت بعدّهم كـ طفل بريء لايشغله شيء .. أخذت بالتفكير ، - ماذا لو لم يخلقني الله إنساناً ، مالذي سأكونه .. قطاً مشرداً بأحد شوارع "خنشليلة " يلاحقني ذلك الشقي ليحشرني بزاوية ممارساً ركلي ، أم صقراً عند أحد المتنفذين يقوم بجرجرتي من مقناص لآخر ويحادثني أحيانا بصوته الفخم :

- صدقني ياعسّاف ، أنت طير بارع ..هيا ياحبيبي ، حلّق

ربما سأكون سياجاً حديدياً تلف به قطعة هامور منتفخ يخاف الله كثيراً.. أو"ولاعة" بجيب مراهق يقذفني بكل قوته على ذلك الجدار منتظراً مني أن أحدث دوياً .

أخذت بالسخرية مني كيف لرجل عاقل أن يتهرطق بهذه الخيالات .. تباً ، يبدو أني سأجنّ قبلهم ، بدأت الأشياء تغفو والتفاصيل تغور .. لا أعلم كم من الوقت مضى قبل أن يلكزني أحدهم :

- سيدي الكريم ، لقد هبطت الطائرة بسلام .. حمداً لله على السلامة

فزعت التفت لمن عن يميني لم يكن موجوداً .. وقفت كانت الكراسي خالية ، أخذت بترتيب ماتبعثر مني .. سحبت شنطتي معي مهرولاً نحو باب الطائرة قبل أن يودعني المضيف قائلاً :

- الحمد لله على السلامة ..

تبسمت ورفعت رأسي نحوه :

- الله يسـ... هو أنت ..؟

قال:

- عفواً !

قلت:

- أنت من كنت جانبي وأحسست أن الله أرسلك عقاباً لي ، أنت "الأثرم"كيف أصبحت مضيفاً .. كنت هناك طيـ..

قال بلهجة مهذبة :

- عفواً أنا مضيف على متن هذه الطائرة لي خمس سنوات ، حمداً لله على السلامة مرة ثانية ..

تفضل

وأشار بيده نحو الباب .

إصبعي المتقزم البشع : كن بخير ..!

أكثر ما يمكن أن يغرس بي فوبيا شرسة قد تمتد لتصبح عقدة يتوارثها أبنائي هي المستشفيات ، رائحتها ، ممراتها .. شخوص الرسبشن المتكلفين أناقةً ، الممرضات الدمىٰ ، الأسلاك المتدلية داخل الغرف .. لوحات الجهاز الهضمي .

هذا اليوم كان الرابع والثلاثين لإصبعي دون علاج بعد أن أغلقت عليه الباب حين هاجس ألمٍ بي ذات ظهيرة وهي حالة تنتاب الكثير من زملائي المواطنين مؤخراً نتيجة تلك الكتل من الخيبات التي تخترق حياتهم . فجأة قررت أن أذهب لمستوصف حينا المتكئ علىٰ زاوية شارعنا الممتد من السيد "خريص" العظيم ، لأني وحين وسوسة قلت لي :

– من المحتمل جداً ياصديقي أن تصبح هذه الكدمة البنفسجية "غرغرينا " تطير بأصبعك الأيمن أو ربما يدك بكاملها .. أو قد تضطر لقسمك لنصفين ، هل تتخيل نفسك كذلك ؟

أعني وأنت تأكل بينما يفرّش نصفك الثاني أسنانه ، حاولت تشتيت سحابة الوسوسة تلك من فوق رأسي علىٰ طريقة الرسوم المتحركة .. دخلت المستوصف ، عجت تلك الرائحة بأنفي وأنا أتمتم مشجعاً نفسي .. ومتخذاً هياط شعرائنا الشعبيين المتكلسين أنموذجاً :

الطـير لامـنه نوىٰ له بنيه :: كفخ جناحه وأبعد الحوم بالريش

اقلط نهار الكون في كل هــيّه :: لا زغرتوا من فوقهـن باللواليش

مع أني لم أكن طيراً حينها بل كـ عصفور بلله المطر ، ولم أسمع " لولشه" بل ونين أطفال / صراخ ممرضات / أصوات عربات الكراسي المتحركة / أجهزة حفر الأسنان ..

تقدمت متجسراً للـ "ريسبشن" وبصوتٍ مترقب :

– الدكتور فهمي سمير موجود ..

- عفواً ، أتيت متأخراً .. ليس متاحاً الآن

عاجلته بوجه يجلب الأسى ويكسر الخاطر كثيراً قائلاً:

- كيف لهذا أن يحدث ، حالة إصبعي المتقزم حرجة .. انظر

رفعت أصبعي عاليا وحركته بخبث - صوت صرير باب متهالك يصدر من مفصله-

قال مندهشاً :

- حسناً ، حسناً .. اجلس بالانتظار

لكنه تدارك دهشته :

- فتح الملف سبعون ريالاً فقط

- ألم يكن بخمسين .. هل لغلاء "الكوسة" شأن بهذا ؟

- لا ، بل لأنه استشاري

كانت الساعة التاسعة إلا خمس دقائق ، قذفت نفسي وإصبعي المتورم على تلك المقاعد الجلدية الخضراء منتظراً ، تلفزيون يعتلي الجدار .. إعلان عن شامبو "هيد آند شولدرز" وفيه بدا الشاب وسيماً جداً وذو شعر حريري وابتسامة لعينة ، قلت بنفسي :

- اللهم لا اعتراض

- فيساال العامير .. فيساال العامير .. صوت الممرضة وهي تبتسم قائلة :

- يور تورن سير ..

يفتح الباب ، المكان يبدو مريحاً والدكتور كذلك .. ابتسامته عريضة :

- أهلا أستاذ فيصل ، كيف أنت ؟

- أنا بخير دكتور ، إصبعي

رفعته عاليا وحركته مصدراً صريراً سبق شرحه ، هز رأسه صارخاً :

- لاإله إلا الله !

قلت بنفسي :

- هل سيتشهد ، هل دنا أجله ؟ أي توقيت هذا ..

أردف :

- أخشى أن يحدث ما أخافه

تسمرت مكاني ، نظرت بإصبعي .. حركته ، طالعت صديقتي الممرضة .. بالمناسبة هي صديقتي لأنها ابتسمت لي كما علمتنا نظرياتنا الحديثة ، لذا لاتثريب علي في ذلك .

قرر أن يرسلني لغرفة الأشعة بالقبو لتصوير هذا العضو المصاب .. ولجت الغرفة التي أعادتني لغرف الوحدات الصحية بالثمانينات عندما كنا مدمني تطعيم ، كنت يومها أعتقد أني لن أحيا لهذا العمر بسبب الثقوب التي اخترقت يديّ وفخذيّ .. كنت دائما أتخيل جسدي عندما أكبر كـ "شرشف" عجوز .

جهاز يشبه سرير عزوبي بلونه الميت ، وفوقه جهاز آخر .. وضعت صديقتي الممرضة التي تجاوزت الأربعين يدي على لوحة خلتها سبورة سوداء صغيرة ، قلبت يدي ذات اليمين وذات الشمال ، فجأة هربتْ بعد أن أطفأت الأنوار.. التفت إليها ثم إلى يدي ، ظلام دامس .. صوت يقترب كـ طاحونة ربما .. بدأت تقليب الأفكار :

- ماذا لو انفجر هذا الجهاز الأثري بجبهتي ، هل سيختفي صرير إصبعي

ضحكت فكرة أخرى بداخلي قائلة :

- هذا إن كنت حياً ساعتها

أغمضت عينيّ ، صوت الباب يفتح .. رفيقتي الإندنوسية :

- أوكي سير .. خمسا دقيقة بعدين خلاس

جلست على أحد تلك الكراسي الحديدية غير المريحة ..لاسيما وأن جسمي نشأ بربوع "زيلامسي" النمساوية لربع قرن ! ففضلت الوقوف ، المهم أني بدأت أسمع أصواتاً تناديني .. أصوات أطفال / رجال / نساء .. لاأعلم لِمَ..وفي كل مره أطل برأسي على غرفة من بدت أنها سعودية بنقابها لأقول لها:

- من ناداني ؟

قبل أن أقرا بعينيها :

- لم يفعل أحد هذا أيها " المتميلح "

وحتى هذه اللحظة وأنا أجزم أني سمعت على الأقل أكثر من أربعة ينادون باسمي

استلمت الملف الذي يحمل أشعة أصبعي البشع بعدما خاطبتني :

- يا أخ استلم أشعتك .. بح صوتي

قلت :

- أرأيتِ لم أكن أتخيل

قالت :

- عفواً !

صعدت للدكتور الذي يتشهد كثيراً :

أخذ الأشعة ، ألصقها على شاشة بيضاء .. شاركته تحليل شكل إصبعي العاري الممتد

قلت :

- ألا يبدو مائلاً ياسيادة الدكتور ؟

بدأ بفرك لحيته وهو يمعن النظر للشاشة :

- لا ، ليس مائلاً

خلع أشعتي قائلاً :

- الحمد لله .. رضة بسيطة سأكتب لك مرهم " ريباديرم" وستجري الأمور على مايرام ، لن يقطع أحد أصبعك .. ربما لأنه لايستحق ، ثم ضحك ، أحسست بأنه يحتقر أصبعي لكني شاركته الضحك . لازلت أحاول تمريخ أصبعي .. صديقي المرهم ذو الرائحة العفنة .. خويتي الممرضة الشمطاء :

شكراً لكما .

جعلوني : كورجياً ..!

رغم أني طلقت مشاهدة كرة القدم السعودية منذ الـ 8/ 0 الشهيرة، التي سببت لي عقدة لا تنفك عن القفز أمامي كلما شاهدت منتخبنا يلعب، ورغم أني قررت بعد "سنة الثمانية" التفرغ لخططي الذاتية .. والتي لاتهم أحداً ، مؤمنا أن كرة القدم السعودية لن تخسر كثيرا من قراري ذاك .. فلن يتصل علي رئيس النادي الذي كنت أشجعه ليقول لي :

- افتقدناك يارجل ..!

لكن إحدىٰ أتعس التجارب التي حدثت لي أخيراً هي أني وافقت علىٰ مرافقة أحدهم لمشاهدة مباراة المصيرية في أحد ملاعبنا الرياضية، وذلك يعني - علىٰ الأقل بالنسبة إليّ - زحام دون سبب منطقي واحد .. مداخن بشرية .. وحفلة ممطوطة من الشتائم يصرخ بها من بجانبك، تبدأ بالحكم الذي لا يسمعه مبينا له بجدية أنه غاضب من قراره، مرورا باللاعبين المنكوبين حين يخطئون، ووصولا لمدلك الفريق ، الكل هناك عرضة للشتم ، ورغم أني أصفق مع المصفقين حين يقول صاحب المايكروفون المتحمس: «وحدة وحدة وحدة»، وأقف مع الواقفين حين يؤدون حركة الأمواج، وأفعل كل ما من شأنه أن يدفع عني تهمة أني مندس، مزروع من الفريق المنافس، إلا أن طاعتي تلك لا تمنع أحدهم من قذفي بقارورة ماء تهبط علي من عل دون سبب أتفهمه. حينها لا أملك إلا أن أفرك مؤخرة رأسي متمتما بانكسار:

- ليه بس ..؟

وحتىٰ وأنا أتدثر بشعار الفريق فإن ذلك لا يكفي، وأنا أشير بإصبعي النحيل لمن احتل مقعدي الذي حجزته منذ الرابعة مساء قائلا:

- عذراً ، كنت علىٰ هذا الكرسي قبل قليل .. أقسم بربك ..!

ومع أني لست " كورجيا "، أي: مدمنا لمشاهدة كرة القدم المحلية اللطيفة، إلا أني أشعر بالجدب كل ليلة ، فلا مسرحيات حقيقية لايمارس فيها الممثلون التهريج، ولا ربع فيلم سعودي تستطيع مشاهدته ينسج الإبداع ، بل حتىٰ تلك المحاضرات الفكرية المخبأة التي تسبقها حملة إعلامية تجلب الشفقة توزع علىٰ مدار العام وكأنها صدقات. أما نشاطاتنا الثقافية فيمكن وصفها بـالنشاطات الحولية التي يرقد الحراك بعدها بإخلاص يحسد عليه.

وأخشىٰ أنه وخلال هذا السبات سيصبح لزاما علي أن " أطقها وألحقها " حتىٰ يقضي الله أمرا كان مفعولا ..

الثميري .. تقريباً

أمس : الأحد .. كانت الساعة تشير للسابعة صباحاً ، أبدو متكئاً على نعاسي وماتيسر لي من الوجوه المتكررة ، قررت أن أشتري ماتعلق بعيدي ذلك الصباح . تزحف الدقائق حتى تلامس الثامنة ، امتطيت سيارتي ميمماً وجهي الشاحب صوب شارع الثميري القابع بحي الديرة وسط الرياض ، اخترت الوقت صباحاً حيث يتضاءل الازدحام

فـ الضوضاء / الأنوار / ازدحامات المدينة تخلق مني كائناً متوتراً ، لم يكن طريقي وعراً بالسيارات ، الدائري الشرقي ثم خريص .. طريق الملك فهد مخرج المصمك .. انعطفت يساراً ، مررت بالشارع الأشهر : العطايف . لاأعلم .. بدا لي كـ سناء يونس ، تجاوزته وأنا أتمتم :

– أتى على الكل أمر لا مرد له .. حتى قضوا فكأن القوم ما كانوا

أوقفت موتري عند صراف أحد بنوكنا الجشعة ، غمست البطاقة .. أدخلت المبلغ وابتسامتي تحتل نصف وجهي السفلي .. انتظرت .. انتظرت ، خرجت البطاقة لكن المبلغ لم يخرج

قلت :

– ما الذي حدث ؟

غمستها مرة أخرى .. لم يخرج المبلغ

لكمتها بعد أن تكرمشت ملامح وجهي غضباً :

– ياسارقة

سمعت صوتاً :

– اللهم إني صائمة

فججت عيني الصغيرتين

- آها .. سيلحقني الانفصام يوماً ما مادمت تسمع أصواتاً في شبابي

طمأنت نفسي :

- ربما خيل لي من جوعي أنها تتحدث

واصلت مسيري ، كانت الساعة تشير للتاسعة إلا قليلاً ..أوقفت سيارتي خلف الشارع وترجلت منها .. تتسارع خطاي وأنا أخطط ما الذي سأشتريه أولاً لكني تفاجأت حال دخولي الشارع بأن لا أحد هنا .. المحلات مغلقة تماماً .. لا مخلوق ، مشيت قليلاً .. أيضاً لا أحد ، أحسست بالوحشة .. ما الذي أفعله هنا ؟

كان المكان فارغاً ، ولا حتى قطة أو علبة فارغة تحدث ضجيجاً يؤانسني ، لاحت لي من بعيد قطعة سوداء متكومة .. اقتربت منها كانت عجوزاً جالسة وبيدها ورقة كانت تبدو نائمة .. لم أشأ أن تستيقظ فمشيت من أمامها على رؤوس أصابعي .. تخطيتها بسلام لكنها صرخت :

- أعطني مما أعطاك الله

رجعت لها ، سيدة موغلة بالحزن / المرض / العجز لازلت أذكر عينيها ، وقد دس الله فيهما أوجاع البشر ، كان شيئاً خانقاً أن تسمع ما يردده الكبار عن محو الفقراء عفواً الفقر ، بينما تسقط هذه العجوز سهواً ، ربما

- صباحك خير ياعمّة

قلت بعد أن جلست أمامها ، سكتت .. وكأن لسان حالها يقول :

- مالذي يريده ؟ هل سينتظر مني أن أعزمه على قطعة كعكة مثلاً

قلت :

- ياعمّة ، أتعلمين بأي وقت يباشرون هنا

قرأت بعينيها :

- ما تعني ؟ أنا هنا أتسول ، لست مركزاً للمعلومات

قفزت برأسي تلك الفكرة الخضراء ، قلت :

- لم لا تعطيها أيها المتذاكي ، ثم تسأل

- تفضلي ، ادعي لي

تحدثت أخيراً ، صوت مرتجف ونبرة عتيقة :

- أطال الله بعمر أبنائك ورزقك برهم

قاطعتها :

- أي أبناء ؟ لم أتزوج بعد .. ثم أي قسمة تلك التي أعطيك بها وتدعين لغيري

أطرقت برأسها للأسفل وكأنها تقول :

- يا أحمق الخلق ، هل تريدني أن أدعو لقبيلتك كلها بـ عشرة ريالات .. تناسى ذلك

قلت :

- حسناً ، أتعلمين كم بقي من الوقت لتفتح الدكاكين أبوابها ؟

قالت دون رغبة بالحديث :

- الساعة الواحدة

قلت :

- أتمزحين ؟

نظرت لساعتي ، كانت تشير للعاشرة وخمس دقائق .. زفرت بامتعاض :

- ياصباحاتي الغابرة ، يا الله ..!

مشطت الرصيف جيئة وذهاباً ، وبكل مرة كنت أتخطى العجوز آنفة الذكر ترفع صوتها :

- باركك الله ، أعطني مما أعطاك

تمتمت :

- لو انصعت بكل مرة أمر بها من أمامك لاستجدائك ، لأمضيت عيدي بدون ثوب

أتعلم ، ادخل هنا .. غيّر ذلك الرصيف الرصاصي المتشابه ، اتجهت جنوباً داخل ممر ضيق .. أصوات مكيفات منفعلة ، الكثير من الأسلاك وكرسي أحمر فقد إحدىٰ رجليه ، نفضته .. لم يتحرك أو يصدر غباراً وكأنه لايكترث بيدي .. جلست مسترخياً ، عشرات الشبابيك أمامي .. جدران مرقعة بالإسمنت ، أخذت بتفحص أظافري رفعت عينيّ عالياً نحو النوافذ .. وأخذت بالتفكير :

- ياترىٰ مالذي يفعله هؤلاء البشر الآن ، هل كلهم نائمون ؟

هل هناك من يراقبني الآن ؟ مالذي سيتبادر لذهنه ، هل يعتقد أني مروج ؟ أقلت مروج ، أي سخافة تلك يارجل ..!

لأفرض أن تلك العجوز كانت ضابطة مباحث ، ما أن ابتعدت حتىٰ أخرجت جهاز " اللاسلكي " من تحت عباءتها :

- 40 شرق ، أحدهم هنا يبدو مثيراً للشبهة والشفقة أيضاً هو يتجه الآن لمنطقة باء

ابتسمت :

- يا أفلام المقاولات عبثتِ برأسي

صوت خطىٰ تقترب من بعيد ، تقف .. تواصل الاقتراب ، مسن يرتدي ثوباً أبيض وطاقية .. كان يمنياً ، اقترب مني :

- السلام عليكم

- عليكم السلام ، أكمل خطواته

وقفت .. ولحقت به

- ياعمّ ، قالت لي عجوز هناك أن السوق لن يفتح إلا قبيل الواحدة

قال وهو يواصل مشيه الحثيث :

- صحيح ، لا يبدو أنك من سكان المنطقة .. رافقني

فتح دكانه الضيق وهو يحادثني :

- السوق يتأخر كثيراً في رمضان ، اعتادت الناس النوم لوقت متأخر من النهار

دخلت .. أخذ بتصفيف بعض بضاعته خارجاً معه

- دعني أحمل هذا عنك

رفعت ثوبي وشمرت عن ساعدي كان للحديث معه متعة

ونحن نحمل ثياب " دروش" .. وفنايل " الأصيل "

قرب لي الكرسي وقال :

لو لم نكن في رمضان ، لصنعت لك الشاي العدني الذي لن تتذوق مثله .. تجاذبنا أطراف الكلام عن كل شيء ، بدءاً من الاشتراكية اليمنية وصولاً إلى أكلة " الفحسا " الشهية .

كنت أحياناً ألتفت يمنة ويسرة لدى تماديه بالشأن السياسي السعودي لأقاطعه :

- ما رأيك لو تغير الموضوع قبل أن نتشارك غرفة واحدة بـ "الحاير" ..!

يبتسم ويقول :

- مابك ؟

ألملم نفسي :

- لاشيء ، ناولني تلك الطاقية .. تبدو أنيقة

مرت الدقائق سريعاً ، كانت تشير الساعة للحادية عشر والنصف ، قال لي :

- هانت ، ربع ساعة وسيؤذن.. هيّا لنتوضأ

توضأت ودخلت المسجد ، يبدو مهملاً .. لايهم ، كان التعب يفتك بي ، اتكأت على مسندة حديدية .. دخل المؤذن - والذي اكتشفت أنه نفسه الإمام فيما بعد - وقف على المايكرفون ، وقف .. ووقف .

توجست خيفة :

- لاتقل لي أنك تراجعت عن الآذان !

أخذ يسرق النظر لساعته .. ذهب للتقويم شق ورقة منه ، أخذ بالنظر إليها .. طحنها بيده وألقى بها في سلة المهملات وأنا أحدث نفسي :

- حسناً ، ثم ؟

اقترب من المايكروفون ، مطمط شماغه .. تنحنح

تأففت بدوري:

- غفرانك يارب ، هل سيلتقط صوراً لنفسه هنا .. بربك أذّن

بدأ بالآذان ، الحمد لله فرجت .. صليت تحية المسجد ، جلست .. عيناي ترقبان الساعة القابعة فوق المحراب ، مرت ثلث ساعة دعيت بها لكل من أعرفهم ولأبنائهم وأخواتهم ومحمد زكي الذي أصلح لي عطل الهاتف البارحة، وجارنا الذي يصر على إهدائي بطيخاً من مزرعتهم بالزلفي وهو يردد بكل مرة :

- ليس هناك ألذ منها

وأردد بكل مرة عند تناولها :

- أدام الله النعمة

أقام المؤذن أخيراً ، ووقف .. قلت :

- هل سيصلي بنا أيضا ؟

قاطعني :

- الله أكبر

كبرت ، قرأت الحمد .. وقصار السور ، أخذ من بجانبي بالتحرك ، تبعه من بجانبي الآخر .. أحسست أن الإمام ربما نسي أن يركع حاولت أن أصدر صوتاً ، لكنه سبقني بالركوع .. أتممت صلاتي على خير .. حينها بدأت بعض المحلات بفتح أبوابها ، قفزت خارجاً بعد أن حمدت الله كثيراً . اليوم استيقظت ، على صوت وسادتي تموج .. كشفتها .. وجدت تحتها طفلين صغيرين ، ذهلت ، أخذوا ينادوني :

- بابا ..!

حضنتهما وأنا أبكي ، أحسست أني صوفي وتسربت لروحي تلك الدروشة النقية

وقفت وأنا أتثاءب بإيمان ، هززت جسمي للأمام والخلف وأنا أنشد :

- مدد ياعجيّز الثميري ، مدد ياعجيّز الثميري

رفعت الطفلين عالياً .. وبذات تجلي يقيني عميق

سميت الأول : عشر

والثاني : تريل !

خلها على ربك .. وأنا عمك ..!

جاري أبو محسن متقاعد منذ سنوات ، يستأجر بيتاً يبدو كـ جسده المتهالك للوهلة الأولى دلفت لمجلسه الصغير ، كان مزدحماً بصغار السن الذين اصطفوا جلوساً متحلقين حوله .. ثياب رثة بلونها القاتم وعيون متشابهة يملؤها الجوع المدقع وبقايا سعادة . كان أبو محسن مستلقياً على ظهره يلف رأسه شماغٌ عتيق ، ويتلحف بطانية رقيقة تحجب جسده

انحنيت قبلت رأسه ودعوت له بالسلامة ، أردف بصوت واهن :

– سلمك الله ، لم تسلم على أولادي

قلت :

– عفواً !

قال :

– أولادي ، أسال الله في علاه أن يصلحهم .. تعال يا علي ، تعال

قلت :

– ماشاء الله ، توالت علي الكثير من الأجساد البشرية صغيرة الحجم

وخلال ذلك المسلسل المكسيكي من السلامات كنت أتساءل عن جدية هذا ، هل هؤلاء المنظومة هم عياله فعلاً ؟ هل تستحق الأرباح الجيدة من الاكتتابات هذه المجازفة ؟

تم الأمر على خير ، بعد أن أنُهك خدي جراء تلك الارتطامات

صرخ بأحدهم :

– أيمن .. لم لم تسلم على عمك اللطيف فيصل ؟

خرج أيمن من بين تلك الوجوه السمراء ، وكأنه براد بيت بنسخته السعودية ، بشعر أشقر وبهيئة التي تبدو أقل تعاسة منهم .. قفز سؤال لعين برأسي :

– من هذا ، ربما كان تائها عن أهله أو أنه طفرة جينية خلفها هذا الهرم

كان الفضول يزاحمني لأسأله :

– كيف أتيت به ، مالذي فعلته بالضبط ؟

ربما قرأ شيئا من ذلك بعيني فقال :

– أيمن الصغير هذا من امرأتي الأخيرة ، السورية

قلت في نفسي :

– كنت أشعر بهذا

– أما عن البقية فهم من نسائي الأول ، سرحت اثنتين بالطلاق وبقيت واحدة .. أم محسن

قلت :

– لكن ياعمّ !

سكتُ قليلاً ، وابتسمت :

– باركهم الله ، يدرسون ؟

قال :

– الحمد لله

– بأي مرحلة – سألته –

صمت .. ثم قال :

– علي في رابع

قاطعه علي ممتعضاً :

- بسادس

سألت علي عن الباقين ، ثلاثة بخامس واثنين برابع واثنين بثاني وماتبقى من هذا المنتخب لم يلتحقوا بالمدرسة بعد ، تشكلت برأسي عشرات الأسئلة :

من سيربي هؤلاء ؟ من سيعولهم ؟ كيف تستطيع أيها الكهل أن تطعم تلك الأفواه الجائعة ، كيف وأنت لاتقدر إعالة نفسك .. ستنثرهم على الشوارع ؟ ليقتاتوا على الجريمة أم ستسرحهم داخل ظلمات المستقبل المظلم أيها الفحل ؟

من الذي أعطاك الحق لترتكب كل تلك الزيجات ، مخلفاً كل هذا الحشد من التائهين

أيها المفرخ الجليل ، لست أول المنساقين خلف إثبات " المرجلة " والذين لايملون من ترديد " سيأتيه رزقه معه " ، عند بداية طرح كل طفل جديد لهذا العالم .. خلها على ربك بس

قاطع حبل أفكاري قائلاً :

- فعلاً

قلت :

- نعم !

قال :

- خلها على ربك وأنا عمك

ذهلت ، ورددت مولياً شطر الباب :

- كن بخير .. في أمان الله ..!

حين ملل

قبل قليل وبمكانٍ مكتظ بـ " اللحوات الغانمة " و المتجهمين كثيراً ، وأولئك الذين يمضغون ابتساماتهم مجاملةَ ، ويرددون السؤال عن الحال دائماً ، كان برفقتي ابن خالي بندر المرتد عن عاداتنا البالية ، قال لي ونحن جلوس نمطمط الملل و الفضول أيضاً :

- انظر إلى أصابع القوم

أصابعهم كانت ملامح ، هذا أصابعه كادحة مفجعة .. آخر برجوازية زائفة ، من يجلس بجانبه تبدو أصابعه مثقفة لكنها مقهورة والذي يحادثه تبدو بائسة ، ربما كان ضحية أسهم .. من يلقي التحية عليه تبدو مرتجفة .. خائفة من الآتي وأصابعك يابندر تبدو وكأنها تقتات على الحاجة ، رفع بندر يده .. همس لي :

- أتعلم .. يوما ما قال لي أبي " من تفاصيل الفتنة بـ "الزمانات " لـ أي أنثى - لدي على الأقل - هي كفاها الممتلئتان .. وأكمل ، وبالذات من تظهر لها غمازات أربع على ظاهر يدها .. بمؤخرة أصابعها من الخلف بتلك قد أفقد عقلي . قلت :

- يا أبي لكنها بمعايير هذا الجيل سمينة !

قال :

- تعس الجيل .. وما الذي تعرفونه أنتم أصلاً ؟

حاولت الانتصار يا صديقي لجيلي التعيس برأيه فـ قمت بتغيير الحكاية :

- كيف أمسيت يا أبي ؟

رمقني بنظرة فاحصة ، ثم أردف :

- بخير ، بخير .

أيها الملح من رآك ..؟

قبل سنوات ، كنا نقتنص هذه الأوقات للذهاب للبر .. وسيكون من المستحيل أن يناديك أحد من يخيم على بعد أمتارٍ منك قائلاً :

- هل لديكم ملح ؟

عند الصباحات الباكرة وفي لذة نومي يبتليني الله بـ " وليد " وهو يصرخ :

- الصلاة ، انهضوا

قبل أن يقترب من أذني الدافئة هامساً :

- وش ش ش ، الصلاة يا عباد الله

تتسرب لمخيخي تيارات باردة / حادة ، أغمض عيني بشدة وأتمتم :

- مالذي تريده مني ؟

يضحك بخبث :

- قم أيها الذئب سنصلي ثم "نعّس"

أغطي رأسي بالبطانية :

- بهذا الوقت أيها المجنون

يكشف البطانية بعنف ويصرخ :

- هيا بنا إلى العمل

صوت خطواته مبتعداً .. أبتسم لكونه غاب ، ماهي إلا ثواني حتى يضج صوت " الماطور " كـ الواقعة ، تبدد اللمبات العتمة وهو يغني بصوته النشاز :

" يامل قلب يسج وفيه دولاجه .. من هاجس بالضمايرقام يدرجها

في معزل عن جميع الخلق وإزعاجه .. ما أسمع من الناس لو تكثر لجالجها
ماغير أهوجس تقول مضيع حاجه .. آخذ وأسند علىٰ روحي وأهرجها
وأدوج لو كان مارجلي بدواجه .. أدلّه النفس لين الله يفرجها
يالله يالي بيدك الضيق وافراجه ..ياخالق الخلق ياقاضي حوايجها "
أخلع عني ماتلحفته .. أنهض فـ أغني بيأس : " من عز النوم بتسرقني .. أهرب لبعيد وبتلحقني " .. تكرر عملية وليد تلك علىٰ بقية الرفاق الخمسة ، ورغم كمية الشتائم الصباحية الساخطة إلا أنه لايخفي سروره بالتنغيص علينا ، أفكارنا الجادة بالإطاحة به تتلاشىٰ ونحن نتقاطر كجنود مشاة نحو صنبور الماء المغلوب علىٰ أمره وصوت قادم من خلفنا :

- هل ستتحممون ؟

نصطف لأداء الصلاة ، درجات الحرارة تقترب من الصفر ولأن قدرنا دائماً بهي
فإن الإمام يكون دائماً هو بذاته ، وليد ..وجوه تختبئ خلف " اللطم " .. لفحات قارسة و أعين نصف مفتوحة .. وليد يرتل ماتيسر له من سورة البقرة ، رأس من بجانبي تميل .. يواصل ميلانه وعلىٰ كتفي يستقر .. رأس ثقيل يخيل إليك أن الله دس فيه ويكيبيديا ، يركع إمامنا.. أحرك كتفي لأنفض ذلك الدماغ أو يفتح الله علىٰ قلبه فيستيقظ ، ربما التصق رأسه من البرد علي .. لن أمضي عمري قطعاً برأسين !

هكذا حدثت نفسي ، قبل أن يقاطعني صوته :

- سمع الله لمن حمده

أنجزنا صلاتنا بسلام ، قبل أن تتسارع خطواتنا نحو " بطانياتنا " .. نغطس بنوم لذيذ ، تبدأ حينها الشمس بالتنغيص علينا هي الأخرىٰ ، فيما يمارس وليد التنبيش بالأغراض بحثاً عن معجون الطماطم ، ينادي كمن للتو اكتشف صوته :

- شباااااب ، أين المعجون ؟

قبل أن يسرع لرأسي منادياً :

- أبو عامر .. أبو عامر أين المعجون ، المعجون

ألتزم الصمت كنوع من الحكمة التي يقتضيها الظرف .. يخيم شيء من الهدوء ، قبل أن أسمع طنيناً يشبه صوتاً أعرفه .. أشرّع عيني تبدو الرؤية مشوشة إلا من ضوء الكاميرا الأحمر، وابتسامته الصفراء .. ثم يبدأ بالتعليق على فيلمه الوثائقي الذي يقوم بتصويره :

- وجوهكم يارفاق كأنها مصنوعة من البلاستيك وهنا وجه "عمّار" كأنه أيقونة " وين رار " ، وفي اللقطة التالية يظهر " مبارك " وهو يبدو كـ " ماو تسي تونغ " ..وهكذا

يبدو لنا أن اليوم التعيس لايبشر بخير ، ولا بالنوم أيضاً .. نلملم حاجياتنا ، نحشرها بزاوية الخيمة لنمارس يومنا البري الأول ، يخيل إلي أن وليداً هذا لاينام مثل بني البشر وأحياناً أقول :

- هذا الولد قد رضع " كبتاجون " حين كان طفلاً

عبدالله له رأي آخر حين نتحلق حول الفطور إذ يقول :

- ربما كان يعيش عقدة التنغيص ..

يكمل فلسفته :

- كانوا ساكنين تحت طريق الملك فهد ، فلم يكن النوم يطرق لهم بابا .. فيبدو - والكلام لفرويد - إن مايحدث له الآن ماهي إلا عوارض لأزمة تعصف بـ "خوينا" .

يخيم هدوء لثوانٍ ، وكأننا لم نستسغ تبريره .. قبل أن يقطع محمد الجائع دائماً ذلك الهدوء متأففاً :

- الفول " ماصخ "

الكل يلتفت لوليد الذي يخفض رأسه منكسراً وهو يلتهم شيئاً من الرغيف

- عذراً شباب ، أعتقد أني نسيت الملح ..!

مقهى شعبي كثيراً .. لمواطن صالح قليلاً

الحياة : تستحق التدخين

حزب " الذين لايدرون " الإصلاحي

اسمع ما أقوله ، فلن أكون حيّا لك دائماً لتستفيد مني .. سيأتي عليك يوم تستيقظ فيه صباحاً لتقول : رحمه الديان كان رجلاً تقطر منه التجربة ، قبل أن تطرق برأسك باكياً وأنت تتناول إفطارك ، قلت :

- حسناً

أردف :

- أتعلم يارجل ينبغي عليك أن لا تفكر ، بل عليك أن تطبق فمك حين يتحدث أحدهم ويبدو فاهماً .. تساءلت :

- هل يكفي ذلك ؟

- لا ، بل ينبغي أن تهز رأسك وأنت تهتف : صح .. صح ، الرجل المتأنق هذا يقول مامن شأنه أن يكون " صحاً " لـ 9 سنواتٍ قادمة ، بل " صحاً " حتىٰ لايبقىٰ في الدنيا صحاً غيره .. ولن يكون شيئاً سيئاً إن استخدمت يدك للتصفيق حين يقول كلمته الشهيرة : ياعزيزي الموضوع قيد الدراسة ، ومتىٰ ماخلصت اللجنة المشكلة - رعاها الله - إلىٰ نتائج سنأخذ هذه النتائج لنعرضها علىٰ لجنة أخرىٰ تدرس لم أصبحت هذه النتائج بهذا الشكل ، فنحن نشتغل ياناس ، لم نأتِ هنا لنلهو بالبلوت أو نتذوق " الكيكة " التي أحضرها لنا الموظفون والتي كتب عليها : نحن نحبك يا أفضل مدير في العالم .

لاشيء سيدعوني للتفكير بعد جملته الحانية تلك ، هو يشتغل يامعشر البشر وعليه ينبغي أن نشتغل بأنفسنا ، بورقة مقاضي زوجاتنا .. هواية تجميع الفواتير أو بنتيجة مباراة البارحة .. بأي شيء لايعكر صفو سيادته .

قبل هذا كله وحين صباحاتك الباكرة وعند ارتطام سيارتك المقسطة بحفرة أكبر من وعود أحد المقاولين إياهم ، حينذاك دع تلك الكلمات ترن في رأسك : نحن نشتغل .. إلخ

ثم ابتسم ، ابتسم جداً حتى يعتقد من يقف بجانبك عند الإشارة العاشرة لدوامك أنك تذكرت موقفاً ما ، أو جننت كما جنّ هو قبل سنوات ، واصل ابتسامتك وأنت تقرع باب مكتب مديرك مستأذناً الدخول الذي يبادرك بقوله :

- أهلاً ياصالح ، أظلم المكان حين تأخرك .. كيف أصبحت ، هل أعدّ لك إفطارك ؟

لاتفكر وقتها بالرد حتى ، اضحك ثم قل :

- مدير و يمتلك حس الدعابة ، أي محظوظ أنا !

ولا تنس إن طرح أحد زملائك وأنتم تفطرون الفول قضية فكرية ما أن تقول " ما أدري يقولون ذلك لكني ما أدري ، حينما أفكر سأقول لك "

كن دائماً شخصاً لايدري ويدري أنه لايدري ، وإياك أن تشم رائحة الدراية ليس جيداً أن تفعل ذلك .. هل تفهمني ..؟

- نعم .. أفهمك

- لايبدو عليك ذلك ، المهم ياصاحبي كل ماتراه الآن هو نتيجة صنع أناس يفهمون ، الناس الفاهمون ليسوا كنحن ، أنا وأنت أعني .. انظر لسحنتك بالمرآة وقل لي بربك حينها .. هل تبدو فاهما لما يحدث ؟ أنت نكرة ، لاشيء

- عفواً !

- نعم ، أنت كذلك .. أنت كـ أل الشمسية .. تكتب ولاتنطق

- يارجل تحدث عن نفسك

- أنا مثلك أيضاً ، كلنا مخلوقات منسوخون وملصوقون على سطح هذه الأرض

قلت بنفسي :

- ماهذا المجنون الذي استفتحت به صباحي !

رد وهو يطفئ سيجارته :

- المجنون هو من يجلس معك أيها الجاهل ، في أمان الله .

لا أحد يبتسم هنا

- يا محمد ، تفاحتين .. وبراد شاي صغير بدون سكر

يتربع وهو يدلدل هاتفه المحمول .. يكمل :

- لاأعلم لم ياصاحبي .. الموضوع قد لايهدد الأمن الوطني وليس له صلة بالدوري السعودي لكنه قد يزعزع تلك العروق التي لاتزال تتشبث بالفرح هنا ، ولأني كائن عادي لا أرتدي نظارتين سميكتين ولا غترة صغيرة .. لا أحلق شاربي ولا أتحدث كثيراً عن " توازنات الشمام والبراغماتية في التطور الأنثروبولوجي " ولا ألفت ربع انتباه بثوبٍ قصير / شماغٍ بمرزام قاسي أو طاقية تغطي ربع جبهتي ، و عند رجوعي من دوامي أشتري : خبزاً .. زبادي اكتيفيا .. بطاريات لمسجل أمي وأشياء أخرىٰ ..

أخالط أناساً اعتياديين ، أي لايضطرون للابتسام كثيراً للكاميرات .. ولايحتاجون " للشكشكة" تحت هدير أغنية سامجة لكي يوصلوا رسالة مفادها : أن المواطن مرتاح للغاية

يأتي عامل المقهىٰ .. يرص الجمر علىٰ رأس الشيشة .. ويمد " اللي " له ..

- المهم أني أرىٰ وجوها محتقنة .. تقرأ ذلك في أعينهم جيداً .. لايبتسمون ، وقد ينفجر أحدهم مخلفاً أشلاءً منه علىٰ وجهك يارجل أو قد يسحقك بنظراته حين تلتقي سيارتكما بشارع ما .. وإن ابتسمت في وجوههم ، أتاك لسان حال ردات أفعالهم بـ :

- مالذي تريده ياهذا ؟

كنت بالبنك القريب من بيتي ، وحين وصول دوري اقتربت من الشباك

نظر إلي الموظف وكأنه يكرهني :

- كم رقمك ؟

قلت له بابتسامة معلقة :

- ثمانية

قال لي بسخرية :

- من قال لك إنها ثمانية ؟

قلت :

- عفواً الشاشة هي من قالت ذلك

قال :

- بالله ؟

بالمناسبة لو حاولت حينها أن أناقشه لهمز أحدهم كتفي قائلاً :

- ياهذا لم تختلق المشاكل ؟ لدينا ماهو أهم من التفرج عليك فاتلاً عضلاتك .

في تموينات الحي ، أبتسمت ذات مره للهندي .. نظر إلي ، نظر إلى كيس مشترواتي ثم نظر إلي مرة أخرى قائلاً :

- حساب " سبعا " ريال

دفعت له " السبعا " وأنا لازلت مبتسماً .. نظر إلى فمي ، نظر إلى الريالات وقبل أن يسألني :

- مالذي دهاك ؟

قاطعه صوت غاضب :

- صديق .. أنت .. بكم الزيتون ؟

صبّ لي " بيالة " من الشاي ، مدّها لي

- سمّ

- تسلم

- أشياء غريبة تحدث في هذا البلد الممتع يا رجل .. هل تسمعني ؟

- أسمعك

نظر لي .. رشف شيئاً من الشاي .. ثم مال وسط الدخان ..

أحبك نعم أتزوجك لا

أخذ يهزّ كتفيّ، حتىٰ كاد يسقط رأسي من فوقهما وهو يقول لي:

- أحبها، أنت لا تشعر بي أيها الكائن الجاف، منزوع الحسّ.. أعشقها بشكل ضخم، صعبٌ علىٰ رجل متصحر مثلك أن يتفهمني.. اسمع ما كتبته بها.. اسمع : " البارحة.. لم أنم ، ها أنا أصدر صوتاً يشبه الونين، نعم لقد وننت ، آه.. فأنا موجوع بكِ أيتها المرأة التي لا تهتمين بي، ولا أعلم عنكِ إلا اسمك "، ما رأيك بهذه المقطوعة ؟ دعني أكملها عليك ".

توسلت إليه ألا يفعل، وأن يكمل حكايته وحسب.. تابع :

- حياتي لن تستمر دونها، سأقذف بها بأقرب حاوية للمهملات - أقصد حياتي وليست حبيبتي الفاتنة - نعم .. فلا خير بعمر أعيشه بعيداً عنها، صه .. دعني أفضفض، فكونك صديقي لا يعني أن وظيفتك الوحيدة هي التبسم ، المهم .. أحاول ترتيب هدية جميلة لها ، سيصادف الثلاثاء عيد حبنا السادس، فكرت بدب أحمر لكني تراجعت فأسعاره هو الآخر مرتفعة، دون سبب منطقي.. أعتقد أن خروفاً ورديا سيفي بالغرض، خروف أليس كذلك ؟ أعني سيكون مناسباً كهدية ها؟

أجبته:

- لا أعلم يا صاحبي ما الذي يمكن لي أن أساعدك فيه، لكني مهتم بأن تكون مرتاحاً علىٰ الدوام، ما دمت سعيداً بما تفعل فثق بأني مبتهج ، موفق للخير.. وسأدعو الله آناء الليل أن يتوج ما تفعله بالزواج وستسمي ابنك عليّ، لعلّه يصبح مثلي، فـ..

قاطعني بعينين جاحظتين :

- ومن قال لك إني سأتزوجها؟ أي حماقة ترتكبها يا رجل ، أنت وقح.. كيف تجرأت؟ أنا لا أتزوج امرأة أعرفها.. ليتك سألتني عن اسم أمي لكان أهون علي ، فعلاً إن لم تستح فاصنع أشياء غبية، قم بعيداً عني ، قم .. ليتني ما استشرتك أيها المفلس.. يا الله، ما هذا النهار الأغبر..!

وغنيت : يا قبري

رفعت الجوال عالياً ، نظرت إلى الساعة

- تأخر اللعين .. هل دهسه أحد ؟

دخل المكان ، تخطى مطفأة السجائر .. جلس ، جرّ شماغه من فوق رأسه

وضعها على كتفه ، كان حزيناً .. قلت بعد أن استوى :

- تأخرت ! ذاب قلبي عليك ، أين كنت ؟

- شكراً ياصاحب القلب الحنون ، كنت أقوم بواجب العزاء .. توفي أحد أصدقائي البشر اليوم

- أحسن الله عزاءك

- جزيت خيراً

صرخ مخاطباً العامل :

- يامحمد ، ادع لي المطعم

- جائع ؟

- أكاد أبتلعك من أثر الجوع ، لم أستطع أن آكل هناك .. جاملت أحزانهم

- ألست حزيناً ؟

- لا أعلم ، كنت بالمقبرة .. من يحمل النعش على كتفيه ويبكي ، من يدفن التراب بيديه ويبكي ومن يحضن آخر ويرتجف من أثر البكاء .. حتى إن أحدهم ما إن رآني مطرقاً رأسي أنظر لأصابع أرجلي الغريبة حتى جذبني له وضمني لصدره ثم أخذ يبكي فتحت فمي وأغمضت ، أصدرت صوتاً يشبه النحيب وعصرت عيني عصرتها أكثر ، لم تنزل دمعة واحدة .. فتحتها ، تجول

بصري بالنصب .. بالكتابات التي ملأتها .. بالقبور ونتوءاتها .. بمكاني حين تبصقني الدنيا ، بحلقتي الأخيرة .. كوني زائل .. أصبحت أتمتم وأنا أمثل دور المتأثر وأهتزّ : ياترىٰ هل سيدفنني " علي " ، ابن خالتي الذي تسلفت منه عشرين ألف ريال أيام الأسهم البائسة ويبكي علي قبل أن يقول لورثتي الكادحين : " أحسن الله عزاكم ، لايستأهل الرجل الطيب الموت .. كان قريباً مني كثيراً ، ربما لايكون هذا وقته .. أعني .. المرحوم اقترض مني مبلغاً .. ليرتاح في قبره لا أكثر . تعرفون ما أقصد أليس كذلك ؟ "

صرخت وهم يدفنونه

- لاااا ..

ساحت دموعي وعلا صوت نشيجي ، انتبه من كان يحضنني ، نظر إلي .. قال لي وهو يجفف عينيه :

- اصبر يا أخي ، كلنا علىٰ هذا الدرب سائرون .. لاتجزع

قلت وأنا أواصل نحيبي :

- ليتك تدري !

- أدري ، ورب المخلوقات أدري .. أبو سعود كان محبوباً من الجميع .. اذكر الله .

واصلت بكائي بمرارة لم أذقها يوماً ما

سحب نفساً من الشيشة .. نفثه عاليا .. ثم قال :

- أتعلم .. سوف أموت لكني سأقول لهم : " لايعلمن عني " الديّانة " شيئاً .. سأقول لهم أبلغوهم بالتالي : سافر المقترض من سيادتكم إلى أدغال أفريقيا يدرس هناك ، أتعتقد أنهم سيصدقون ؟

- جرب أن تموت وسنرى

- احلف ؟

- خض التجربة ، لن تخسر شيئاً

الظرف المحتوم

- لكن ألا يبدو عنوان هذه الشكاية كأحد عناوين مسلسلاتنا الخليجية ؟ هل أنت متأكد أنك ستختاره عنواناً لما ستكتبه عني ؟ تجاوز هذا .. سنتناقش بالأمر لاحقاً .

حدث لي اليوم ما أريدك أن تشاركني به ، لا تضع يدك على جيبك العلوي لا أريد منك أن تسلفني مالاً ، الحال لايزال مستوراً

طرق بطرف " اللي " على شفته السفلى.. ثم تابع :

- يارجل كنت نائماً عصر اليوم في أمان الله ، منبطحاً على سريري كما خلقني الله .. ليس هناك أجمل من أن تنام عارياً ، تشعر بالتجرد .. بكونك إنساناً ، لماضيك السحيق .. لذة خلقك الأولى / مماتك ، تـ...

- لا أحتاج شرحاً لهذا ! أكمل

- دق الجرس ، رفعت رأسي .. نظرت إلى الساعة كانت الثالثة عصراً .. سقت اللعنات على أبناء جاري عديمي التربية ، ورغم أني رفعت الجرس عالياً إلا أن هؤلاء الأقزام الشياطين يتسلقون أكتاف بعضهم ، ليقرعوا الجرس كلما غطست بنومة هانئة

- جيل منقوص الأدب ياصديقي

- دعني أكمل ، لاتقاطعني .. حاولت تجاهل الأمر بداية لكن ما إن أسدلت عيني الجميلتين حتى جلجل صوت الجرس

نهضت بحاجبين معقودين بعد أن لففت غطاء السرير على نصفي الأسفل ، وأنا أفكر فقط في لكمهم على وجوههم بحال استطعت بكرشي المتدلية الإمساك بهم ، كنت أفرك أسناني على بعضها غيظاً .. فتحت الباب وصرخت :

- الله يلعـ** .. ياعيال **..!

كان المكان هادئاً ، إلا من رجل متدين شاهدني وهو يفتح باب شقته

قبل أن يحوقل قائلاً :

- اتق الله يا أخي ، لاينبغي هذا لمسلم

نظرت إليه ، نظرت إلى نفسي .. نظرت إليه ثم تداركت :

- من دق الجرس ؟ لعلمك فإن أطفالك "المطاوعة" الصغار نغصوا علي دقائق نومي

- استغفر الله بس

أخذت بتقليده مستهزئاً

- استغفر الله بس !

ثم تداركت

- أستغفر الله فعلاً .. مايجوز هذا لحمه مسموم

أغلقت الباب ، راجعاً .. وطئت على شيء أفزعني ، كان ظرفاً صغيراً

قلت متثائباً :

- أحبكم ياشركة " الكهرب " ، بالتأكيد أرسلوا لي ظرفاً فيه تعويض عن انقطاع أمس كما يحدث في الدول المتقدمة،

اقتربت من الظرف المنمق ، محادثاً إياه :

- لا ، يبدو أنه أحد بنوكنا .. رحم عجزي وراتبي الذي يطير معظمه فاجتمع مجلس إدارته بخصوص إسقاط فوائد القروض التي ساهمت في إفلاس المواطن المسكين العاري أدناه ، أتعلم ربما كان ظرفا أرسله أحد اللصوص وقد دسّ بداخله قائمة بالأشياء التي ينبغي لي أن أوفرها قبل أن يأتي لسرقة شقتي مرة أخرى

ومذيلة بـ : الأخ العزيز سبق ونبهتك أن " اللابتوب " الذي قمت بسرقته يحتاج " فرمته " ها أنا أعيده لك ، كان عليك أن تنبهني لهذا من قبل حفاظاً على الوقت .. مع تحيات صديقك اللص : س . ص ..!

لا .. لصوصنا لايفعلون هذا عادة ، فهم لايحترموننا أصلاً ولو كان الأمر بيدهم لسرقوا حتى أعضاءنا ، إذاً ربما كانت دعوة لحضور مسرحية لايزحلق الممثلون فيها كثيراً ليضحك الجمهور سلمت أمري لله ولأقداري التي تشبهني بلا ملابس .. فتحتها وقرأت :

" أنت .. تم رفع إيجار الشقة التي ترمح فيها 3 آلاف ريال .. ربما ستسأل وأنت تفجّ عينيك الآن بصوت عالٍ :

- لم !

سأجيبك :

- بلا ثلاث أرباع سبب .. شكراً "

قلت :

- أمرك لله ، مالذي ستفعله .. الأسعار مشتعلة ولن تجد شقة قريبة من مكان عملك

- لا أدري ياصديقي

حك خدّه .. ثم أردف :

- هل تملك ثلاثة ، سلفاً ؟

- ثلاثة ماذا ؟

- ثلاثة آلاف ريال

- ها ! أترضى بظلم كهذا ؟ يصادر جشعٌ رأيك وكأنك لست موجوداً دون سبب منطقي ، لو استشارك على الأقل.. اتركها وابحث عن غيرها

- أترىٰ ذلك ؟

- تماماً

صوت فرقعة ماء الشيشة .. أغلق إحدىٰ عينيه وهو يقول :

- سيكتب الله مايراه خيراً

خيبة بيضاء

قام قليلاً ثم رجع ، تنهد .. رفع بصره للسماء .. سألته :

- ستموت الآن ؟

- لا ، قررت أن أفعلها بعدك

- بل بعدك

خفض رأسه ثم تابع :

- بسيارتي هذا الصباح ، أسدلت تلك المرآة لأرتب شماغي قبل ذهابي للدوام ، لاحظت شعرة بيضاء نافرة كنت أعتقد أنها خيط أبيض سحبته ، كانت شيبة يتيمة بدت ناصعة / ومتغطرسة هدهدتها ، دفنتها بالسواد لكنها سرعان ماظهرت كانت أشد بياضاً من ذي قبل ، أو هكذا خيّل إلي ، تذكرت حينها وصية أمي رضي الله عنها بأن نتف الشيب فأل سيئ .. وإن كنت لا أؤمن بذلك ، فإني على الأقل مؤمن بوالدتي وعليه فضلت عدم وأدها .. كان هناك اعتقاد سائد بزمن الجهل أن الشيب مرتبط بالخوف وأن ظهور شعرة بيضاء إنما هو نتيجة موقف مخيف / مفاجئ يبدو ذلك سخيفاً ، لكني خائف الخوف من الآتي .. القدر الذي لايحبني ، لامشكلة لدي مع الموت .. أناديه : صديقي لأنه الصديق الذي لايتخلى عنك ، لاتعلم متى يزورك لكنه يفعل ذلك بالتأكيد وتلك سمة لاتتوفر في أصدقاء هذه الأيام .

فكرت في أن أحضنه ، خفت أن يطلق صرخة باكية يلفت بها كل من في المقهى فهو لاتعلم متى يبكي أو يضحك .. ابتسمت ، ابتسم هو .. وسرعان ماتجهم :

- أقول

- قلّ

- لا أملك نقوداً الآن .. حاسب

- لك ذلك

حي على الفلاح

أنزل الجريدة ، كان نظره شاخصاً .. رفعها ثم كومها وقذفها في الزاوية القريبة منه وقال :

- اسمه ليس موجوداً

- من هو ؟

- ولدي ، نخلت كل واسطات البلد .. لم يجدِ الأمر نفعاً ، حتىٰ أبو بدر لم يستطع فعل شيء

- من هو أبو بدر ؟

- أمس ، تهندمت .. تحممت بالعطور ثم رصفت شماغي فوق رأسي .. تأبطت الملف الأخضر ، السمة السعودية الأشهر .. عبرت الشوارع التي تمنيت لو أجلس يوماً عليها ، ملساء تسر الناظرين .. تخطيتها ، قصور .. شجيرات مرتبة ، قذفت بسيارتي بعيداً .. لايليق أن يروني بلباس ناصع وسيارة هرمة ، تبخترت وأنا أمشي ، فـ أبو بدر تربطني به علاقة متينة فجده لأبيه هو خال " موضي " من الرضاع موضي ابنة عمي وعليه تصرفت وكأني صاحب المكان ، جلست بصدر المجلس .. وضعت رجلاً علىٰ رجل

نظرت لصناع القهوة بشيء من التعالي ، وقلت بصوت فخم :

- صبّ لي من القهوة ياولد

هرع المغلوب علىٰ أمره ، صبّ لي .. ناولني الفنجان ، كان مرتبكاً .. لم ألتفت له ، رشفت شيئاً من القهوة .. نظرت إلىٰ السقف .. الأعمدة الرخامية والتي شُغلت بالذهبي .. الكراسي الفخمة ، قلت في نفسي :

- أي عز هذا ياسويلم ! سحقاً للدنيا .. أنسيت سنينك المفلسة ، يبدو أن الحال تدحرج بك حتىٰ كبرت كومة ثروتك .. اللعنة ، مددت يدي بالفنجان .. هززته :

- شكراً ..

عدلت قلمي المائل بجيبي العلوي ، جلستي وشماغي

انحنيت ، أخذت موزة كانت تنتصب أعلى سلة الفواكة .. قسمتها لنصفين والتهمتها كانت أشهى فاكهة تذوقتها منذ أن تعلمت الأكل ، أيقنت حينها أن كل الموز الذي أكلته في حياتي .. كان خدعة .. أيّ قردٍ " ملعوبٍ عليه " أنا

سألته هو يقف كحرف الألف أمامي :

- متى يحين موعد قدوم صديقي أبي بدر

- الساعة الثامنة أطال الله في عمرك ، هل أخدمك بشيء آخر ؟

- ما اسمك ؟

- عتيق يا سيدي

- تعلّم ياعتيق يا ابني ، أن تكون مكافحاً في حياتك كن دائماً واقفاً في وجه العواصف لاتجلس ، كن صلباً إن جلست ستمر الفرصة من فوق رأسك ، لن تنتظرك . عندما كنت في مثل عمرك ، كنت أكافح .. أكافح وحسب .. حتى صرت جهاز مكافحة يلبس ثوباً .. أشاهدت في حياتك شيئاً كهذا ؟

- لا أطال الله في عمرك

- المسألة دائـ....

فجأة فرّ عتيق من أمامي ، بدأ الارتباك يعم المكان كل المكان .. نادى أحدهم :

- الشيخ وصل

تقافز الجمع وقوفاً وكأن أحدهم لمس زراً ما .. تمتمت :

- قف منتصباً أيها البروليتاري ، انتهت فقرة أحلامك

نهضت ، دخل بـ " بشت " أسود مطرز وغترة بيضاء .. اخترق الأجساد البشرية المتراصة الذين انشقوا لنصفين بالتساوي ، أحسست بأحدهم يجذبني

من يدي .. قائلاً لي بتوتر :

- ابتعد ، ابتعد .. كن هناك .. هيا

أقبل الشيخ ، جلس .. شرب قهوته على عجل .. التفت إلى من بجانبه

حاولت التطاول بين جموع الحجاج .. أشرت له بيدي .. لايبدو أني أشكل علامة فارقة هنا

حاولت المزاحمة ، اقتربت منه وبصوتٍ مهذب :

- مساء الخير أبا بدر

- أهلا

- كيف هي أيامك ؟ كيف حال الـ ...

قاطعني :

- ماحاجتك ؟

- ولدي ، رفسته الثانوية العامة بنسبة تشبه وجه من جذبني قبل قليل.. فكنت أقول أ...

- حسناً ، تعال يا فرج .. خذ ملفه وتول الأمر

ثم همس بأذنه بكلمات ، حاولت استراق السمع قبل أن يأخذني أحدهم بيدي لأغادر الكرسي :

- تفضل من هنا

وقفت ، مشيت مبتعداً .. التفت لصديقي الشيخ كان منهمكاً ، شعرت بقلبي يتفتت بغصة تعتمر بحنجرتي .. غادرت المزار الطبقي اللعين .. الفروقات الريالية النتنة .. رجعت إلى سيارتي .. حقيقتي الوحيدة البشعة ، لشقتي المتعفنة .. علب العصير الملقاة أكياس الوجبات السريعة الرخيصة ، أسلاك الهاتف الظاهرة .. عدت لي أنا .. أنا ..

قاطعته :

- كن حليماً يارجل ، الدنيا لم تأتِ يوماً على مقاس أمزجتنا .. ربما لم يذكرك ، أو أن مشاغله ألهته عن ملاحظة وجودك .. لا تكن حساساً

أخذ بتفحص علبة الماء بيده ..ركزها .. نظر إلي :

- أتحبني أنت ؟

- لن أفعل غير هذا

- هل ستنكر معرفتي يوم أن يغرقك الله بالريالات ؟

- قطعاً لا ، أنت شقيق الروح .. هل ستفعل أنت ؟

- طبعا سأفعل

كوب : شتيمة

- لدي رغمة عارمة أن أقذفك بتهمة معلبة

- تقذفني بماذا ؟

- تهمة ، معلبة

- لم ستفعل ذلك ؟ أنا لطيف على الدوام معك

- أنت ليبرالي ؟

- لاتقل هذا ، استغفر لذنبك

- تغريبي ؟

- متى

- أنت تغريبي .. يعني تتجه غرباً كلما غربت الشمس

- لم أفهم

- تتصنع عدم الفهم ها .. يا بريء وكأنك المسكين الذي تأكل القطة وجباتك الثلاث ولاتلتفت لك حتى

- أنت تهذي ؟

- أتشعر أني أهذي ؟

- نعم .. جداً

- دعني أقذفك بتهمة أخرى

- هل سيريحك فعل ذلك

- تماماً

- لاعليك ، اقذف .. بسم الله

- أنت .. أنت

- أنا ، مابي ؟

- أنت مثقف ، مثقف وابن ستة وستين مثقف

- طفح الكيل ، خطأ ماتفعله

- ليس ثمة صح هنا ومع هذا تستحق تلك الأخيرة المعلبة

- لقد قسوت علي

- تستاهل ، قلت لك لا أريد الذهاب لكنك كنت مصراً على أن أشارك بذلك الشيء الذي يطلقون عليه " الحراك الثقافي "

- ما الذي حدث ..؟

- أبداً .. ذهبت ياعزيزي لحضور نشاط ثقافي يقيمه النادي الأدبي الذي قلت لي عليه رتبت دقائق يومي .. وتهندمت كما يليق بالمثقفين بعد أن دفعت ريالاتي لحلاقي التركي البشوش الذي ختم فركه المضني لوجهي بجملته الشهيرة : نعيماً يا عريس .. كنت أهز رأسي وأنا أخبر كل من أقابلهم بعد سؤالهم باستغراب لي : ما الخطب ..!

لأنك ربما لاتعرف أن الابتسام هنا عملية نادرة الحدوث لأسبابٍ لامجال لتفكيكها-

أرد عليهم بـ : بشراكم ياقوم ، إني ذاهب لاحتفالية ثقافية .. نعم كما سمعتم ثقافية .. ثقافية ..!

أكملت طريقي مبتعداً عنهم ولسان حالهم يقول : هل يقصد أن الاحتفالية تلك ستشمل ألعاباً نارية أم لا ؟

اجتاحتني السعادة وأنا أقوم - قبل أن أغادر هذه الدنيا - بالمساهمة ولو لمرة بحراكنا الثقافي ذي الساق الخشبية ، ركبت سيارتي عابراً عباب " كوبري الخليج " بمزاجٍ عال، منتشياً بصوت "

مارسيل خليفة " وأنا أغني معه : "مُنتصب القامة أمشي ، مرفوع الهامة أمشي" .. أضواء من خلفي تسطع بعينيي المثقفتين ، أصوات المنبهات تلوث أذني المتسلطنة " مسج " من زوجتي به :" لاتنس تجيب سيميلاك لعبود " ، لايثنيني كل هذا عن مواصلة ماعزمت عليه ..

فأنا كما ترىٰ أحمل علىٰ الدوام مشعل التنوير ولبنة النهضة فوق رأسي كـ دلوين ..

وصلت إلىٰ المكان الذي بدا لك مزدحماً علىٰ غير العادة .. شككت للوهلة الأولىٰ بـ سرعة بديهتي – تبارك الله – أن ذلك الحشد ماهو إلا تجمهرعلىٰ حادث كعادتنا المبجلة ، تداركت الأمر حين لكزني من بجانبي قائلاً :

– ألغيت الندوة

التفت نحوه قائلاً وابتسامتي لازالت متمسكة بوجهي :

– عفواً !

حينها استرجعت شريط ذكرياتي ، وقتي المتبخر ..ريالاتي الطائرة ، بشاشتي المجانية وبكل ماتيسر لي من إحباط تمتمت :

– فعلاً ياعبود ، الثقافة لاتؤكل " سيميلاك "

أعرفت الآن لم أنت مثقف .. وستظل طوال عمرك مثقف ؟

– فهمتك الآن .. هل اشتريت لعبود ما قالته لك أمه ؟

– اشتريت له ، جعلت الصيدلي ابن المثقف يسجلها "علىٰ الحساب" لنهاية الشهر

مشروع : دمج

صوت يظهر من التلفاز:

- أنا الذي ، أنا الذي ..

تخطيت العتمة ، اتكأت جانبه وكأني لست هنا

أصوات تصفيق ، ثم يكمل الصوت :

- أنا الذي ، أنا الذي

قلت لصاحبي :

- أصبحت مهتماً بالشعر الشعبي إذاً

- لا ، ليس كذلك .. كنت أفكر

- أنت تفكر إذاً ، أكمل

- أنا موجود .. صح ؟

- لا ، إذاً أنت على وشك أن تبتلينا بمصيبة

- لايذهبن خوفك بعيداً بك

- كما ترى

- لدي مقترح لأصدقائي بمجلس الشورى

- خطة فقر ؟

- لا

- مجلس وطني للشفافية ؟

- لا

- انتخابات ؟

- أيضا لا

- ليقدموا استقالاتهم .. متفرغين لري حدائق منازلهم ؟

- اقتراح مفيد ، لكن لا

- ماذا إذاً ؟

- يدمجون معظم الشعراء الشعبيين على مدى عشر سنوات

- كيف

- يصنفونهم أولاً ، شعراء : ياونتي .. شعراء : قبيلتي قوية جداً .. شعراء : عيون حبيبتي أكبر عيون بالعالم .. شعراء : تلفون العملة

- ثم ؟

- يعزلونهم عن بعض ، ويتم دمجهم .. العشرة بواحد ونتبرع بالفائض لباكستان ، ألا تعتقد أن هذه الطريقة مكلفة ؟

- فكرت بهذا ، سنطلق مسابقة "الشاعر المدموج" ونأتي بفتاة فاتنة ومسؤول كبير ليصفق.. ثم نصنع من المتحمسين مجموعات بشرية " فزاعة "

- وبعدها

- إن نجحت الخطة كما هو مرسوم لها ، سيأتي دور المفكرين

- كيف لنا أن ندمجهم ، وهم بالكاد يصلون لعدد أصابع اليد الواحدة

- لا ، بالنسبة للمفكرين العكس يعني نقبض على المفكر ، نقتاده لمختبراتنا ثم نستنسخه لعشرة قبل أن نوزعه على المناطق

- مقترح جميل ، تستحق عليه قصيدة

- نعم !

- قصيدة .. مدح

رفع هاتفه .. اتصل على أحدهم :

- أهلا أبا تركي ، لدي أحدهم يستحق الدمج سأغلفه وأرسله لك

قبل أن ينهي اتصاله ، كنت قد انتعلت حذائي ووليت فاراً

استنطاق

- دعني أمنطق الأمر

- تمنـ .. ماذا ؟

- من أكبر المعضلات التي علي أن أواجهها معك هي الفروقات الفلسفية فيما بيننا

- أيبدو هذا شيئاً سيئاً ؟

- حتىٰ الآن نعم ، كنت أقول : أعتقد أن الناس هنا يعانون من عقدة الجمع ، لايستطيعون ممارسة سلوكيات قويمة حين يمارس الآخرين سلوكيات متخلفة

- كيف

- قبل قليل كنت أنتظر بدائرة حكومية ما إن تأخرت عن فتح أبوابها ، حتىٰ ازدحمت الكتوف.. ضربت الفوضى أطنابها وتعالت الأصوات ، كان الكل يدفع الكل وما إن فتحت الأبواب حتىٰ تراكضوا لنيل رقم .. بعد ذلك ، تقاطروا جلوساً وعم الهدوء أرجاء الصالة وكأنهم ليسوا من كانوا قبل قليل يكاد بعضهم يدعس بعضاً

- تناقض ؟

- بل تكيف .. حينما كانوا عند البوابة كانوا يمارسون جمعاً الفوضى ، وحين دخولهم كانوا أيضا يمارسون جمعاً الانتظام ، ولو كان أحد في الحالة الأولىٰ منظماً .. ضد تيارهم الهمجي لأصبح شاذاً عن السائد ولأكلوه كما يقرر قانون الغاب وينسحب الكلام علىٰ الحالة الثانية حين سلوكهم المتحضر .. الأمثلة جمة .. عند الإشارات .. عند قيادتهم خارج الحدود بل حتىٰ في علاقاتهم الإنسانية .. هم يتبعون السائد .. القطيع ، وجود أحدهم خارجه طبقاً لإيمانياته سيحوله تدريجياً لفرد منبوذ .. قصي ، حتىٰ يكتئب أو يشنق نفسه

- تبدو ذا نظرة ناقمة

- بل ناقدة ، ليس كل ناقد .. ناقماً بالضرورة

- حسناً أستأذنك قبل أن تنتقم مني زوجتي لتسكعي خارجاً معك

- نلتقي لاحقاً أيها المتزوج

جمهورية الأخ الرئيس

كان يكتب بنهم على ظهر علبة المنديل .. ناديته :

- يا تولستوي

أخذ يشطب ، ثم مد سهماً طويلا بقلمه .. رسم وجهاً بفم حزين

سألته :

- ماتفعل ؟

- أخطّ وصيتي

- من ذا الذي يكتب وصيته بمقهى

- جبهتي ماعادت تتسع لكتابة المزيد ، جمهوريتي التي انتخبني شعبي لقيادتها في أمس الحاجة لوصايا تهديهم سبل الرشاد .. بعد أن أقص تذكرة المغادرة عن هذه الدنيا

- جمهورية من ياحبيبي !

- قد تكون حاقداً ، لكن لعلمك أيها المنشق اخترت لجمهوريتي مكتباً بإحدى العمارات التجارية بحي العريجا ، شقة مرتبة .. فوق السطح وسأصدر غداً البيان رقم واحد وسألصقه على عدادات شركة الكهرباء بجانب " شركات نقل العفش " وفوق صرافات السحب الآلي .. عند الرفاق أبي دغش وأبي محمد ، الذين يتكفلون بتسديد قروضنا وإخراج أخرى .. سأجعل من سعالي نشيداً قومياً ومن خطوط لحافي علماً يتوسطه أنفي .. بالمناسبة

- آها !

- قل للرفاق بالاستراحة أني لن أستطيع دفع " القطة " بعد اليوم .. لأسباب أمنية أولاً ولأنه لايعقل أن يترك رئيس الجمهورية مشاغله التي يكتظ بها يومه ليتصنم أمام وجوهكم كل ليلة .. ثانيا ، ألست محقاً بذلك ؟

- هل أنت بخير !

وقف ، أغلق أزرار ثوبه .. قبض يده أمام فمه ، كحّ قليلاً ثم قال :

- أيها الشعب العظيم ، إنه لمن دواعي فخري واعتزازي أن أقف اليوم بينكم وعن شمائلكم .. وعن أيمانكم وبين وسائدكم ورؤوسكم التي أينعت وحان طرحها لاكتتاب عام ، صدقوني .. وستفعلون هذا حتماً أني أحبكم للحد الذي يجعلني لا أنام حتى ينام آخر فردٍ منكم .. فك أزرار ثوبه ، قفز للجهة المقابلة .. رفع أكمامه ثم هتف :

- جمهورية حرة أبية .. حرة أبية .. حرة أبية

فركت عينيّ .. وأنا أتمتم :

- بسم الله عليك

رجع لمكانه .. عاد لسيرته الأولى :

- شكراً لكم ، شكراً .. لولا أني أخاف أن يغتالني أحد منكم ياشعبي البهي بقنبلة يخبئها بجيب بنطلونه ، لكنت الآن بينكم .. أحضنكم فرداً فرداً و" أذب " بكل ماملكني الله من سلطة " الميانة" بينكم ولن يتجرأ أحد حراسي الشخصيين على قتل أي مواطن يقترب مني ليقول لي : كفك ..!

بعد إطلاقي لنكتة سمجة ، فزمن مصادرة ضحكاتكم ولى ..أريد في فترتي الرئاسية الأبدية أن أصنع منكم شعباً طيب المزحات ، لن تبكوا بعد اليوم .. سأشق رؤوسكم برماح الفرح .. لن

تداوموا بعد اليوم ، سأغلق كل الوزارات وسأسرح كل الوزراء ونوابهم ونواب نواب نوابهم .. سأفتح بدل مراكز الشرطة حانات صغيرة ، سنسهر سوية ولأني أغلقت وزارة " بيت المال " فستتكفلون أنتم بدفع الحساب ، سأفرد يوم السبت لأحضنكم .. من يرىٰ لديه المؤهلات لأحضنه فلينتظر عند الساعة الخامسة أمام باب شقتي الكائنة في العمارة الجمهورية وهي البناية التي تحوي شققاً بأعدادكم ، ستكونون جيران الرئيس .. ليس حلماً صدقوني فوجودي بجانبكم يجعلني أسمعكم جيداً ، فوزير المخابرات السابق سيكون عاطلاً مثلكم .. أيها الشـ....

اقترب العامل المفجوع منه ، تفحص وجهه .. قال له بتوجس :

- بابا ، مدير .. مقهىٰ سكّر خلاص !

جفف عرقه ..

- وين هذا نفر.. صديق أنا ؟

- هوا يروح قبل واحد ساعه .. خلاص .. سكّر الحين

- سمّ .. أبشر

❋❋❋